روايات الهلال

الرجل الثالث

جراهام جرين



روايات الهلال
Rewayat Al Hilal
سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمى
تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

روايات الهلال

العدد ٥٠٨
ابريل ١٩٩١ ● شوال ١٤١١ هـ
NO : 508 AP . 1991

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي واحد وعشرين جنيها في ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وسبعة عشر دولارا في البلاد العربية . وخمسة وعشرون دولارا لباقي دول العالم . والقيمة تسدد بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيوني زغلول . الصفا ص ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب : ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع

تلكس TELEX 92703 HILAL U . N
فاكس FAX 3625469

اسعار بيع النسخة فئة ٢٥٠ قرشا

الاردن ١٥٠٠ فلسا . الكويت ١٥٠٠ فلسا . العراق ٢ دينار . السعودية ١٠ ريال . المغرب ٢٠ درهم . البحرين ١٢٠٠ فلس . قطر ١٠ ريالات . الامارات العربية ١٠ درهم . سلطنة عمان ١ ريال . غزة والضفة والقدس ١٫٥ دولار . انجلترا ١٫٥ جك .

إدارة التحرير : ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة . ت ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)

الرجل الثالث

تأليف

جراهام جرين



دار الهلال

الفصل الاول :

أطـلال ڤيينـا

لا يدرى الإنسان متى تقع الواقعة . فبعد أن التقيت أول مرة برولو مارتنز ، خصصت له بطاقة فى أرشيف أعمالى البوليسية ، على النحو الآتى :

انه فى الاحوال العادية شخص مرح محب للحياة ليس فيه ميل كبير للشر . يكثر من الشراب جدا ويمكن وهو سكران أن يجر المتاعب على نفسه وعلى غيره .

كلما مرت من أمامه امرأة رفع اليها عينيه ورشقها بتعليق خاص . بيد أنى أعتقد أنه فى الجملة يؤثر الهدوء . فهو انسان لم يبلغ أبدا مرحلة النضوج بمعنى الكلمة . وربما كان هذا فى الغالب سر تعلقه بلايم .

وقد بدت بعبارة (فى الاحوال العادية) لان مقابلتى الأولى معه تمت فى ظرف استثنائى جدا ، هو موت لايم وموارته التراب .

وكنا فى شهر فبراير . فى مقبرة فيينا المركزية . وقد عمد الدفانون الى آلات حفر كهربائية كى يفتحوا ثغرة فى الأرض المتحجرة من الجليد . حتى كأن الطبيعة نفسها قد بذلت غاية جهدها لترفض لايم وتضن عليه بالمأوى الأخير . ولكننا صمدنا لمقاومتها الى أن رأينا بعيوننا لايم يهبط الى تلك الحفرة . ثم تنهال عليه آثار الحفر كأنها رجم الحجارة .

ولما انتهى الدفن وأقفلت المقبرة ابتعد رولو مارتنز مسرعا . وكأن ساقيه الطويلتين تنشدان الفرار بسرعة السباق . ودموع الصبية أو صغار الغلمان تنهمر على وجنتى هذا الرجل الطفل ابن الخامسة والثلاثين .

ذلك ما بدأ به كالواى مدير البوليس قصته . ثم استأنف حديثه فقال :

كان رولو مارتنز يؤمن بالصداقة ، ولهذا وقع تيار الحوادث التالية على نفسه وقعا عنيفا يختلف عن وقع تلك الحوادث عينها على أشخاص عاديين مثلى ومثلك . ولو أنه لجأ الىّ منذ تلك اللحظة وافضى بأسراره ومتاعبه لكان من اليسير جدا أن نتجنب تعقيدات كثيرة حدثت لتلك المسألة حتى اوشكت أن تقلبها أسطورة تتحدى المعقول والطبيعة !

ولكى تدرك حقيقة هذه القصة الغريبة المؤلمة ، يجب أن تكون لديك على الأقل فكرة عن الاطار الذى وقعت فيه حوادثها . وهو مدينة ڤيينا التى حولتها الحرب العالمية الثانية الى أطلال . واقتسمتها الدول الظافرة فجعلت منها أربع مناطق : روسية وبريطانية وأمريكية وفرنسية . لا تفصل الواحدة منها عن الاخرى غير لافتة صغيرة . وأما وسط المدينة حيث مجموعة التماثيل والابنية الرسمية فمنطقة دولية . تحت رعاية الدول الأربع . تتولى كل دولة منها الحكم مرة كل شهر على التوالى ، وتتعهد برعاية الامن .

واذا خطر لك فى المساء أن تذهب الى حانة ليلية لتنفق الشلنات النمساوية الدولية . فمن المؤكد أن تشاهد الدوريات الدولية ، مكونة من أربعة جنود . كل جندى يمثل دولة . وحين يحتاجون الى التفاهم يستعملون لغة عدوهم المحتل ! وانها لصورة قاتمة محزنة لمدينةكانت عاصمة للمرح والموسيقى وحب الحياة فيما بين الحربين .

وهذه بعينها هى ڤيينا التى وصل اليها رولو مارتنز فى اليوم السابع من فبراير فى العام الماضى . وقد اجتهدت أن أعيد بناء الحوادث بقدر استطاعتى بناء على الارشيف الخاص بى . وبناء على ما رواه لى مارتنز . فقصتى على الجملة طبق الاصل . ولم ألفق سطرا واحدا من أحاديثنا . وان كنت لا أطمئن الى ذاكرة مارتنز . ولا دقته الحرفية .

ولولا أن رولو مارتنز تلقى دعوة من لايم لما أمكنه أن يحصل على تصريح بدخول النمسا . لانها تعتبر من الأراضى المحتلة وقتئذ .

كان لايم قد اقترح على مارتنز أن يكتب بحثا أو تحقيقا عن حالة اللاجئين الدوليين . ومع أن هذا العمل ليس مما تخصص فيه مارتنز عادة

الا انه قبل المهمة . لانها تتيح له شيئا من النزهة . وكان فى أشد الحاجة الى نزهة بعد حادث دبلن . وحادث امستردام .

وكانت عادة مارتنز بعد انتهاء كل علاقة نسوية أن يسميها حادثا . ويبحث بكل وسيلة عن النسيان . والحقيقة أن المسائل النسائية كانت تدخل حياته رغم ارادته . لانه ضعيف جدا أمام المرأة ويعتبر دخولها وتاثيرها فى حياته من قبيل القضاء والقدر . أو الحوادث القهرية على حد تعبير شركات التامين ....!

وعند وصوله الى فيينا كان يبدو مضطربا . أو كمن يطارده عدو غريب . فكان ينظر باستمرار من فوق كتفه . الامر الذى لفت نظرى من أول وهلة فاشتبهت فيه .

والعمل المعتاد لرولو مارتنز هو تأليف قصص رعاة البقر ، ومغامرات الغرب الرخيصة ، المغلفة فى ورق زجاجى لامع . وكان يوقعها باسم أدبى مستعار . هو "بك دكستر" . وكان واسع الانتشار جدا ولكن فى مستوى لا يغبط عليه وبأجر تافه .

وطبيعى أنه ما كان ليجد الوسيلة للحضور الى فيينا على حسابه الخاص . لو أن لايم لم يؤكد له تكلفه بدفع جميع نفقات اقامته من اعتماد غامض للدعاية والنشر .

ووقع له حادث غريب فى فرانكفورت حيث استقرت طيارته القادمة من لندن منذ ساعة . وكان مارتنز يتناول السجق فى مقصف المطار الامريكى عندما اقترب منه رجل عرف مارتنز فيه على الفور مندوبا صحفيا .

ـ مستر دكستر ؟

ـ نعم

ـ انك تبدو أصغر من صورك المطبوعة . الا تريد أن تفضى الينا بتصريح ؟ أنا ممثل صحافة السلطات المحلية . وكنا نريد أن نعرف رأيك فى فرانكفورت يامستر دكستر .

ـ لم اهبط الا من عشر دقائق .

ـ هذا صحيح . اذن نريد رأيك فى الروايات الأمريكية .

- انا لا أقرؤها أبدا .

- غمزة بارعة يامستر دكستر . هل هذا مستر كارى ؟

وأشار الصحفى الى رجل أشيب الشعر .

- لم أسمع به أبدا

- هو الذى كنت أبحث عنه فى الواقع .

وتركه الصحفى وأسرع نحو ذلك الرجل . وعز على مارتنز أن الصحفى لم يحضر لمقابلته خصيصا . ولكن شرح صدره أن هذا الصحفى عرف اسمه واعتبره أهلا للادلاء بتصريح .

وتبخر شعور مارتنز بالزهو والأهمية عندما اكتشف فى مطار ڤيينا أن لايم لم يحضر لاستقباله . ولم يجد له أثرا فى فندق أستريا الذى اقلته السيارة الضخمة اليه .

لم يجد أثرا للايم . حتى ولا رسالة أو مذكرة . بيد أنه وجد خطابا صغيرا مبهما جدا كأنه لغز . معنونا باسم مستر دكستر ، ومن شخص لا يعرفه مطلقا ، اسمه كرابن . وفحواه :

- كنا ننتظر وصولك بطائرة الغد . فتكرم بالبقاء حيث أنت الآن . ولا تبتعد عن الفندق . وقد حجزنا لك غرفتك .

ولكن رولو مارتنز لم يكن من طراز الاشخاص الذين يتمنون البقاء حيث هم . فكلما مكث فى بهو فندق غريب . وقع له "حادث" عند مرور أول امرأة من بائعات الهوى . وكان رولو مارتنز فى حالة نفسية تجعله زاهدا فى جميع أنواع الحوادث .

ووجد رولو حل المشكلة فى عنوان لايم الذى فى جيبه . وفى الوقت نفسه لم تكن لديه أدنى رغبة فى أن يعرف الرجل المدعو كرابن . ولم يخالجه شك فى أن هذا الرجل اختلط عليه الأمر . ولم يخطر له أن يربط بين هذه الرسالة وحديثه الصحفى فى مطار فرانكفورت .

وكان لايم قد كتب اليه أنه سينزله فى مسكنه . وهو مسكن كبير فى حى من أحياء ڤيينا الحديثة ، كان سابقا مسكنا لكبير من النازيين

وأما مسألة العملة فقد فكر مارتنز أن يجعل لايم يدفع أجر التاكسى بمجرد وصوله الى مسكنه بالمنطقة البريطانية . ولهذا طلب من السائق ان ينتظر ريثما يصعد الى صاحبه بالطابق الثالث .

كم يحس الانسان الصمت ، حتى فى مدينة صامتة مثل ڤيينا تحت الثلج الذى يتساقط بانتظام !

ولم يكد مارتنز يصل الى الطابق الثانى حتى أيقن فى أعماق نفسه أنه سوف لا يجد لايم . بيد أن ذلك الصمت كان أعمق من صمت الغياب .

أجل . أحس مارتنز أنه سوف لا يجد هارى لايم فى أى موضع بمدينة ڤيينا . ولما وصل الى الطابق الثالث وأبصر عقدة سوداء كبيرة على مقبض الباب ، علم أنه سوف لا يلتقى بلايم على ظهر الدنيا كلها .

بطبيعة الحال من الممكن أن يكون الشخص الميت فى الدار هو الطاهية أو الخادمة . أو أى شخص آخر عدا هارى لايم . الا أن رولو مارتنز كان يعلم تماما أن لايم هو الذى مات . وكان يعلم ذلك منذ العشرين درجة الاخيرة من درجات السلم . وياله من احساس ! فان لايم كان بطله ومثله الاعلى طيلة العشرين سنة الماضية ، أى منذ لقائهما الاول فى دهليز مظلم بالمدرسة ، ورنين ناقوس يملأ الظلمة .

ولم يخطىء احساس مارتنز كل الاخطاء . فبعد أن ضغط على جرس الباب أكثر من عشر مرات ، انفتح باب مسكن مجاور لمسكن لايم فى الطابق الثالث ، وأطل رجل ضئيل الجسم برأسه وقال بصوت محتد :

ـ لا لزوم لكل هذا الرنين . ليس هناك أحد ... الذى مات .

ـ هر لايم ؟

ـ طبعا الهر لايم لا سواه .

وقد علق مارتنز وهو يروى لى ذلك بقوله :

ـ لم أدر فى البداية أى مغزى لهذه العبارة . كأن ما سمعته من قبيل المعلومات التى تندرج تحت اسم المتنوعات أو الاخبار القصيرة فى صحيفة التايمز . ولهذا قلت لذلك الجار :

- ما الذى حدث وكيف ؟ ومتى ؟

فأجاب الجار :

- دهمته سيارة . فى يوم الخميس الماضى .

ثم أضاف الرجل بعد ذلك كأن المسألة لا تعنيه :

- وسيدفنونه هذا العصر . لقد انصرفوا منذ دقائق .

- انصرفوا ؟ من ؟

- أوه ! صديقان له وتابوته !

- وما فائدة نقله الى المستشفى ؟ لقد قتل هنا أمام باب المنزل بالضبط . ومات فى الحال . لان رفرف السيارة الايمن صدم كتفه فألقاه الى الامام كأنه أرنب مذبوح .

وقال لى مارتنز أن هذه الكلمة من كلمات الجار . وهذا التشبيه بالارنب جعل خبر وفاته يتخذ معناه الحى . فتمثل على الفور هارى لايم فى صورة فتى صغير يحمل البندقية ويعلم مارتنز كيف يطلق الرصاص . وكيف يصطاد الارانب . بل ان مارتنز سمع فى تلك اللحظة صرخة الفتى لايم :

- أطلق النار أيها الابله ! الارنب هناك !

وجرح الارنب ببندقية مارتنز جرحا غير مميت . وهرب وهو يعرج الى داخل جحره فى باطن الارض .

وسأل مارتنز ذلك الجار الغريب :

- وأين سيدفنونه ؟

- فى المقبرة المركزية . وسيجدون عناء شديدا مع هذا الجليد .

ولم يدر مارتنز كيف يمكنه أن يدفع أجر التاكسى . كما أنه لا يدرى كيف يعثر فى ڤيينا كلها على حجرة يبيت فيها وليس فى جيبه الا خمسة جنيهات انجليزية . بيد أنه ترك هذه المسائل ريثما يقوم أولا بتوديع هارى لايم فى مقره الأخير .

وركب مارتنز التاكسى وطلب منه أن يقوده الى خارج المدينة . الى الضاحية التى تقع فى المنطقة البريطانية حيث المقبرة المركزية .

وفي طريقه الى هناك اخترق المنطقة الروسية .. وجذبتها من المنطقة الامريكية التي كان من السهل معرفتها من البارات الكثيرة المنتشرة فيها البيرة والمثلجات والآيس كريم صودا !! ..

وكانت عربات الترام تحاذي سور المقبرة المركزية الطللي .. وفي الجانب الآخر من شريط الترام حوانيت صناعة الرخام وشتى لوازم المقابر .. وهذه الحوانيت تتصل حلقاتها في سلسلة لا تنقطع مدى كيلو مترين ..

ولم يكن مارتنز يتوقع أن تكون حديقة المقبرة بذلك الاتساع الهائل .. وقد غطاها الجليد .. وكأنما هاري لايم ترك له قبل رحيله عن الدنيا رسالة مقالها أن موعدهما للقاء هو هيد بارك !!

وكانت ممشى المقبرة الواسعة تحمل أرقاما وحروفا .. فوقف في وسطها حائرا أين يتجه بين تلك الصفوف التي تشبه عجلة ضخمة ..

وحتى هذه المقبرة كانت مقسمة الى مناطق أربع .. كل دولة من الدول المحتلة تسيطر على منطقة منها .. فالمنطقة الروسية يعرفها المرء من تلك التماثيل الضخمة لمحاربين مسلحين .. والمنطقة الفرنسية يعرفها من تلك الصلبان الخشبية المستطيلة التي يعلوها علم مثلث الالوان أنهكت نسيجه الريح ..

وتذكر مارتنز فجأة ان لايم كاثوليكي .. ولهذا لا يمكن أن يوجد في المنطقة البريطانية التي كان يبحث فيها عبثا .. ولهذا دار على عقبيه الى خميلة من الاشجار أشبه بالغابة .. وفي ركن منها لمح ثلاثة رجال من عمال الحدائق في ثياب سوداء مزركشة بالفضة وفوقهم قبعات مثلثة أشبه بقبعات القرن الثامن عشر .. وهم يدفعون أمامهم تابوتا ..

وبهذه المصادفة استطاع مارتنز أن يصل الى قبر صديقه قبل النهاية .. ليجد حوله حفنة من الرجال وقسيسا قد فرغ لتوه من صلاته القصيرة التي كان يلقيها همسا .. ثم بدأت عملية انزال التابوت الى الحفرة .. وعندئذ دفع أحد الواقفين زميله بمرفقه .. فأفاق من ذهوله وألقى بباقة الورد التي كان نسيها في يده فوق النعش ..

وعلى مبعدة وقفت بمعزل فتاة .. وقد أخفت وجهها بين يديها .. وكانت ألما

واقفا على بعد عشرين مترا قرب قبر آخر وأنا أرقب في هدوء بوليسي رحلة لايم الاخيرة - وأسجل بعناية في ذاكرتي اسماء الاشخاص الموجودين هناك - ولم أكن بالنسبة لمارتنز سوى رجل يرتدي معطفا واقيا من المطر - فاقبل نحوي وسألني :

- أتستطيع أن تخبرني من الذي يدفنونه هنا ؟

فأجبته وأنا مندهش لجولان الدمع في عين هذا الغريب :
- شخص اسمه لايم ..

ولم يكن في الواقع من الطراز الذي يبدو البكاء من عاداته - البكاء الصادق بدموع حقيقية - ولم يكن أحد سواه يبكي عدا الفتاة - ودموع الفتيات شيء لا يستغرب ولا يعول على قيمته .

ووقف مارتنز بالقرب مني حتى النهاية - ولم يقترب من بقية المشيعين - أي كانت بينه وبينهم عشرون خطوة تقريبا - وقد صرح لي فيما بعد أنه وهو الصديق القديم للايم لم يرغب في فرض نفسه على أصدقاء لايم الجدد - كأن موته مسألة تخصهم هم - ولهذا تركه لهم ! ولم ترك له الا تلك الصورة العاطفية التي تمثل له لايم في ضوء صداقة عشرين سنة - فهذه الصورة ملكه وحده لن ينازعه فيها أحد .

وعلى أثر الصلاة الدينية التي تضايقني دائما في حفلات الدفن لانى لست من أهل التقوى ، رأيت مارتنز يبتعد بخطوات سريعة من ساقيه الطويلتين النحيفتين متجها نحو التاكسي - ولم يبذل أي جهد للتحدث الى الآخرين من المشيعين - وكانت دموعه قد أخذت تنهمر صراحة - فعجبت لقدرته على ذرف تلك القطرات التي تبخل بها عيوننا عادة في هذه السن .

والمعروف أن بطاقات أرشيف البوليس لا تكون دائما كاملة - وأن ملف أي قضية لا يحفظ حقا بعد الوفاة بل يكون دائما عرضة لاعادة البحث - ولهذا تعقبت مارتنز دون سواه - لانى كنت أعرف المشيعين الثلاثة الآخرين فأردت أن أعرف هذا الغريب - واستطعت أن الحق به بجوار التاكسي وقلت له :

ليست معي سيارة - فهل لك أن تأخذني الى المدينة معك ؟
- طبعا .

وكنت اعلم أن سائق سيارتى الجيب واقف عند المدخل وسوف يتعقبنا بالجيب خلسة .

ولما ابتعدنا لاحظت أن مارتنز لا يلتفت نحوى أبدا . ولم يلتفت وراءه نحو القبر ابدا . وأنا أعرف بتجربتي الخاصة أن من يتصنعون الالم ، ومن يتصنعون الحزن والحب ، هم الذين يولعون بالقاء النظرة الاخيرة على موتاهم ، ويصرون على التلويح لآخر لحظة بمناديلهم للمسافرين فى المحطات ، بدلا من التلهف على الاختفاء من غير نظر الى الوراء . وربما كان هؤلاء الانانيون مولعين بعرض أنفسهم على الآخرين أطول مدة ممكنة ، حتى ولو كان الآخرون من سكان القبور .

وقطعت الصمت بقولى لمارتنز :

ـ اسمى كالواى .

ـ مارتنز :

ـ هل أنت صديق للايم ؟

ـ نعم .

وأنا أعلم أن الايام الثمانية الاخيرة قل فيها جدا من يدلى بذلك الاعتراف لصداقة لايم بهذه البساطة . فأدركت أنه غريب عن فيينا .

ـ وهل أنت هنا منذ زمن طويل ؟

ـ لم أصل من انجلترا الا بعد الظهر . وكان هارى قد دعانى للحضور لزيارته هنا . ولم أكن على علم بما وقع له .

ـ يالها من صدمة قاسية لك .

اسمع ! ان بى حاجة ملحة الى الشراب . وليس معى نقود ، اللهم الا خمسة جنيهات استرلينية . وسوف أكون شاكرا لك جدا لو دفعت لى ثمن كأس من الخمر .

وحل دورى كى أقول له :

ـ طبعا بكل سرور .

وفكرت لحظة ثم أعطيت السائق عنوان بار صغير فى شارع كارتنز . لانى ادركت انه ليس حريصا على الظهور فى مكان مزدحم فى الوقت

الحاضر ، وسط حشد من زبائن البارات الانجليزية . وهم ضباط بريطانيون معهم زوجاتهم . أما البار الذى سميته للسائق فلعل ارتفاع أسعاره هو السبب فى خلوه من الزبائن باستمرار تقريبا ، اللهم الا من عاشقين منعزلين مشغولين بنفسيهما . وأسوأ مافى الامر أن الشراب الذى يقدمه هذا البار بسعر خيالى هو نوع من الكاكاو المسكر الممزوج بقليل من الكونياك . بيد أنى كنت واثقا ان مارتنز مستعد فى هذه اللحظة أن يتناول اى مشروب يساعده على القاء قناع فوق الحاضر ، وفوق الماضى .

ودفعنا أمامنا الباب مستهينين باللافتة التى تحدد مواعيد الفتح . وأعطونا حجرة خاصة تقع داخل حجرتين . وكان الساقى يعرفنى جيدا فأحضر لنا شطائر من الكافيار .

وبعد أن تجرع مارتنز كأسه الثانية وهو صامت قال :

ـ عفوك . ولكن لايم كان أعز صديق لى .

فلم أستطع أن أمنع نفسى من الرد عليه قائلا :

ـ هذه عبارة مما يكتب فى الروايات الرخيصة .

ـ وأنا بالفعل من كتاب هذه الروايات !

وبذلك نجحت خطتى فى تعمد جرح احساسه كى يفضى فى ثوراته بأقصى ما يمكن من المعلومات . وبعد الكأس الثالثة أدركت أنه من النوع الذى يبدأ فى العربدة بعد الكأس الرابعة . فقلت له :

ـ حدثنى عنك وعن لايم .

ـ لحظة واحدة ! انى بحاجة الى كأس أخرى بأى شكل . وأنا لا أستطيع أن أستضمر فى الحياة على حساب شخص لا أعرفه . فهل لك أن تصرف لى جنيها أو جنيهين بنقود نمساوية ؟

فقلت وأنا أنادى الساقى ليأتى بالكأس :

ـ لا عليك من هذا . فستكون مدينا لى بمعاملة المثل حين أذهب فى الاجازة الى لندن . انك كنت على وشك أن تروى لى كيف تعرفت بصديقك لايم منذ عشرين سنة



المفاجأة

تناول ماريتز الكأس فى يده كأنه كنز ثمين .. وراح يقلبه فى يديه تحت الضوء باعتزاز .. ثم قال ::

– كان هذا منذ مدة طويلة جدا .. ولا أعتقد أن أحدا من الناس عرف هارى لانيم كما عرفته أنا ..

وانصرف ذهنى فى الحال الى الملف الضخم الموجود فى مكتبى بمقر البوليس .. وفيه تقارير كثيرة من رجالنا .. وكل واحد منهم يدعى أنه عرف لانيم أفضل معرفة وأصدقها .. ولى ثقة فى رجالى لانى اخترتهم عن تجربة ..

"..... منذ عشرين سنة بل أكثر .. كان لقاؤنا فى مستهل حياتى المدرسية .. ولم أزل أتذكر لوحة التعليمات وما سطر فوقها .. وأتذكر رنة الناقوس .. وكان هارى أكبر منى بسنة .. ويعرف كيف يتصرف .. واليه يرجع الفضل فى تعريفى بأشياء كثيرة" ..

وتجرع ماريتز الكحول بسرعة ثم أخذ يقلب الكأس ويديرها فى كل ناحية .. ناظرا فى التماع الضوء وشعاعه .. كأنما يقرأ فى بللورة العراف لوح الماضى ..

– .... ما العجيب هذا !! اننى لا أتذكر بهذا الوضوح لقائى الأول مع أى امرأة !!

– وهل كان لانيم تلميذا نابها ؟

– ليس بمقاييس الأساتذة .. ولكنه كان من أنبغ ما يكون فى تدبير الامور

وتصريفها . فى حين كنت خيرا من هارى فى التاريخ والجغرافيا - اما لتنفيذ مشروعاته وملاعيبه . فكنت دائما كبش الفداء .

ثم انفجر ضاحكا . فأدركت أنه بدأ بمساعدة الكحول والحديث فى نسيان الصدمة التى أصابته بموت لايم . فقلت له :

- وهذا طبعا كان يريح لايم ويخدم اغراضه .

- ماذا تريد أن تقول ؟

- أعنى أنك كنت توفر عليه العقوبات المدرسية التى يستحقها .

- أنا الذى كنت أقع فى أيديهم بخطئى . فالذنب ليس ذنبه . وكان فى استطاعته أن يختار شريكا فى مشروعاته اذكى منى . لولا أنه كان يحبنى جدا . ولهذا كان شديد الصبر معى . كان صبورا جدا على غباوتى .

وتذكرت أن التقارير تصف لايم فعلا بالصبر الذى لا ينفد .

- ومتى رأيته آخر مرة يامستر مارتنز ؟

- أوه ! منذ ستة أشهر حضر الى لندن ليشهد مؤتمرا طبيا . فأنت لا شك تعلم أنه يحمل اجازة الطب . بيد أنه لم يمارس المهنة مطلقا . وهذه الصفة الغالبة على لايم . كان دائما يحب أن يستوثق من اقتداره على عمل الشىء . ومتى قام به مرة فقد اهتمامه به . ولهذا أراد أن يدرس الطب . وبعد أن درسه بنجاح نفض يده منه . ولكنه كان يجد لتلك الطريقة منفعة فيما بعد . كما طالما قال لى .

وهذا أيضا صحيح . فمن العجيب أن لايم الذى عرفه مارتنز كان يشبه جدا فى خصاله لايم الذى عرفته أنا . وكل ما هنالك أنه كان ينظر الى صورة لايم من زاوية مختلفة أو فى ضوء مختلف .

- ... ومن أحب ما يجذبنى الى هارى حبه للفكاهة . أنا شخصيا أحب التهريج . وأحب أن أدعى البلاهة . ولكن هارى كان يتمتع بروح الفكاهة العميقة وذوق النكتة . أتدرى انه كان فى وسعه أن يؤلف الموسيقى الخفيفة من الدرجة الاولى لو أنه أراد ذلك حقا ؟

وشرع مارتنز يصفر لحنا بدا لى مألوفا بشكل غريب ثم قال :

ـ لن انسى هذا اللحن . وقد رأيت هارى وهو يكتبه . هكذا فى دقيقتين على ظهر مظروف خطاب قديم . وكان يصفر به دائما حين يشغل ذهنه شاغل . ان هذه النغمات هى توقيعه أو امضاؤه المسموع .

وأخذ يصفر اللحن مرة ثانية . فتذكرت على الفور . وطبعا لم يكن هارى هو الذى وضعه . وأوشكت أن اقول ذلك لمارتنز . ولكن ما الفائدة ؟.

وانتهى من الصفير فأطبق فمه وحملق فى الكأس ثم أفرغ القطرات الاخيرة الباقية وقال :

ـ انه من المزعج أن يفكر الانسان ان ميتة لايم كانت على هذه الصورة البشعة .

ـ انها على كل حال ميتة أفضل له بكثير مما كان يمكن أن يحدث له .

ولم يفهم على الفور مغزى كلامى . لأن الكحول كان قد خيَّم على دماغه . ولهذا استعادنى قائلا :

ـ اهذا أفضل شىء ؟
ـ نعم
ـ أتريد أن تقول أنه لم يتعذب بهذه الميتة المفاجئة .
ـ هذا من مزاياها طبعا . ومن حظه أنه ماتها .

وكأن لهجة صوتى هى التى استلفتت انتباهه أكثر من الالفاظ . فسألنى فى لهجة تنذر على هدوئها بالخطر . ورأيت قبضته اليمنى تتشنج وهى تتجمع .

ـ ما هذه التوريات ؟

ولم أجد لزوما لتعريض نفسى لاشتباك سخيف . فرجعت بمقعدى الى الوراء حتى اكون بعيدا عن قبضته قبل أن اقول :

ـ معنى هذه التوريات ان ملف لايم فى البوليس المركزى حافل . وهذا الملف فى عهدتى وكان سيحكم عليه بعقوبة طويلة المدى جدا لو لم يفاجئه هذا الحادث السعيد !

ـ عقوبة ؟ ولاى سبب ؟

ـ لجريمة لا نزاع فى انها اسوأ جرائم التجارة فى السوق السوداء واشدها دناءة فى هذه المدينة .

ورأيته يقيس بنظره المسافة التى تفصلنا . فأدرك أنه سوف لا يصيبنى . ورأيت شخصيته المزدوجة تتنازع فى داخله . فالفتى المندفع رولو كان يريد أن يثب ليضربنى . أما الرجل الهادىء مارتنز فأراد أن يمنعه من الوثوب .

ـ ... هل أنت من رجال البوليس المركزى ؟
ـ نعم
ـ انى طول حياتى اكره رجال البوليس . فحين يكون الواحد منهم أمينا صادقا . تجده أبله !
ـ أهذا هو نوع الروايات التى تؤلفها ؟

ورأيته يتراجع بمقعده كى يقطع طريق الخروج علىّ . فتفاهمت مع الساقى بالنظر . والساقى يعرف شخصيتى ووظيفتى . وأدرك مارتنز معنى النظرة فابتسم ابتسامة جعلته يبدو أصغر من حقيقته بخمس سنوات .

ـ ان كنت تعتقد ان هارى مجرم . فأنا لابد أن أكون مجرما أيضا . فقد كنا دائما نعمل معا .

ـ بل أعتقد أنه كان فى بيته حين دعاك للحضور من بريطانيا أن يشركك فى عملياته الاجرامية أو منظمته . وأن كنت لا أدرى أى دور كان ينوى أن يسنده اليك . ومما رويته لى عن أيام الدراسة أحسبه أنه كان يريد أن يتخذك هنا أيضا ستارا له ولاعماله .

ـ قل لى أولا . هل أنت رجل بوليس حقيقى ؟

ـ من أحسن صنف . من اسكتلند يارد الأصلى بلندن ! ولكن حين ارتدى الملابس الرسمية تجد على كتفى علامات الكولونيل .

ـ هل كان يتاجر فى ...

ـ ليس فى البنزين . كان هذا يهون جدا . ولا فى المطاط ...

ـ وما شأنكم أنتم بالسلع أيا كانت ؟ لماذا لا تهتمون بالقاء القبض على القتلة على سبيل التغيير ؟

- ان الامر جاد يامارتنز . لانه فى قضية لايم يمكن ان نقول باطمئنان ان القتل ينطبق على معظم عملياته !

فاذا به يقلب المائدة . ويطوح بقبضته فى اتجاهى . وقبل ان تصل يده الى وجهى كان سائقى العسكرى الذى نبهه الساقى قد احتضنه من الخلف . فقلت بهدوء :

- لا تشتد عليه ، فهو ليس الا كاتبا سيطر عليه السكر .

فقال السائق فى احترام عميق لمارتنز :

- أرجو سيدى أن يلزم الهدوء !

فقال مارتنز :

- اسمع ياكلفان ! هذا فيما أظن اسمك يا ابن القذر !

- اسمى كالواى . وأنا انجليزى ولست ارلنديا .

- لا أهمية لذلك سأجعلك أضحوكة فيينا كلها . ولن أتركك تدنس شرف رجل ميت تريد أن تلصق به الجرائم التى عجزت غباوتك عن العثور على مرتكبيها !

- مرحى ! اذن ستفعل كما تكتبون فى رواياتكم . ستضع أنت يدك على الفاعل الحقيقى كى تثبت عجزى وتزويرى .

- هذا فيما أرى أفضل من لكمة لن يحمل وجهك أثرها الاسود الا بضعة أيام . أما الضربة الأخرى فسترغمك على مغادرة فيينا .

فأخرجت حافظة نقودى . وأخذت منها ما قيمته جنيهان انجليزيان من العملة المحلية ودسستها فى جيب سترته قائلا :

- سيكفيك هذا المبلغ الليلة . وسوف أقوم بحجز محل لك فى الطائرة المسافرة غدا الى لندن .

- لن تستطيع ابعادى . فأوراقى على خير ما يرام .

- فعلا . ولكن الحياة هنا كالحياة فى أى مكان آخر لابد لها من نقود . واذا حاولت صرف نقودك الانجليزية بنقود نمساوية فى السوق السوداء .

فسأضع يدى عليك وأسجنك قبل أربع وعشرين ساعة .

فسوى مارتنز ثيابه وقال :

- شكرا لك على المشروبات .

- عفوا .

- يسرنى اننى لست مدينا لك شخصيا . لانك فيما أظن تتقاضى مصروفات سرية لتغطية نفقات المهنة .

- بالضبط !

- اذن سنتقابل بعد أسبوع أو أسبوعين عندما أضع يدى على بداية الخيط !

وقدرت أنه غاضب . فلم أحسبه يعنى ما يقول . وظننته يقول ذلك لتغطية وجهه . فقلت له :

- سأذهب غدا الى المطار لتوديعك .

- لا تضيع وقتك فسوف لا أكون هناك .

- ان سائقى "بين" الموجود هنا سيوصلك الى فندق ساشر . وهناك ستجد خجرة وعشاء سآمر بهما لك .

وتراجع كأنه يريد اخلاء الطريق للساقى كى يمر شخص فاجأنى بلكمة تفاديتها فوقعت على المائدة . وقبل أن يعاود الكرة ، كان "بين" قد سدد الى فكه لكمة هائلة . فوقع بين الموائد . ولما وقف كانت شفتيه يسيل منهما الدم . فقلت له :

- أظنك الآن فهمت جيدا أنه لا داعى للعراك !

فجفف الدم بكمه وقال :

- كنت أريد أن أدفع اليك قسطا مقدما من انتقامى الذى أنوى أن افضحك به .

فقلت للسائق :

- خذه الى فندق ساشر . ولا تضربه الا اذا أساء التصرف معك أو أراد الهروب منك .

ثم أدرت ظهرى لهما واتجهت الى الباب الداخلى . لانى كنت بحاجة فعلا الى كأس أخرى بعد نهارى الطويل .

ومن هناك سمعت السائق يقول لمارتنز بكل احترام كأنه لم يضربه بكل عنف قبل دقيقتين .

- من هنا ياسيدى . المكان ليس بعيدا . انه على ناصية الشارع وسنذهب سيرا على الاقدام .



الفصل الثالث

حادث مريب

وما حدث فى الفندق بعد ذلك لم أعرفه من السائق . ولكن عرفته بعد ذلك بمدة طويلة من مارتنز نفسه عندما ربط حلقات الحوادث أمامى وبرهن لى على أنى كنت فى الحقيقة أتمتع بنصيب لا بأس به من البلاهة !

أخذه السائق الى مكتب الاستقبال فى الفندق وقال :

ـ هذا السيد حضر بالطائرة من لندن . والكولونيل كالواى أمر له بحجرة مع ملحقاتها وعشاء .

وبعد ذلك أدى التحية لمارتنز فى خجل من الجرح الذى أصابه به وانصرف . فقال موظف الاستقبال :

ـ هل حجزت حجرتك مقدما ياسيدى ؟

ـ كلا ...

ـ ظننتك المستر دكتسر . فعندنا حجرة محجوزة لمدة أسبوع باسم مستر دكستر .

ـ آه ! أنا فعلا مستر دكستر .

وقال لى مارتنز فيما بعد أنه خطر له أن لايم ولا شك كان قد حجز الحجرة باسم دكستر . وتفسير ذلك عنده أن لايم كان يريد أن يستخدم الكاتب فى دعايته لا الصديق .

وفى هذه اللحظة ارتفع صوت الى جوار مارتنز قائلا :

ـ انى آسف لأن أحدا لم يستقبلك فى المطار يامستر دكستر عند وصولك . اسمى كرابن .

وكان المتكلم جلا بدينا فى مقتبل العمر . يلبس منظارا له اطار سميك جدا ، وكان يكثر من الاعتذار ..

ـ ... الحقيقة أن أحد رجالنا اتصل تليفونيا بفرانكفورت . وعلم أنك فى الطائرة فعلا . ثم حدثت غلطة غريبة . اذ وصلنا تلغراف سخيف انك سوف لا تحضر مطلقا . والتلغراف صادر من السويد . وهذا هو سر الارتباك . ثم علمنا بوصولك فعلا من المطار . هل وصلك خطابى ؟

فأجابه مارتنز بصوت مخنوق من تحت المنديل الذى يمنع به الدم :

ـ وصلنى ...

ـ هل أستطيع أن أقول لك الآن يامستر دكستر ما أعظم تأثرى برؤياك وما أسعدنى بحضورك ؟

ـ انك كريم مهذب .

ـ منذ طفولتى وأنا أظنك روائى فى عصرنا !

فقطب مارتنز وجهه ولم يستطع فتح فمه للاحتجاج بسبب الجرح ورمق المتحدث بنظرة شك فأدرك أنه لا يسخر منه . واستمر الرجل يقول :

ـ ان لك فى النمسا جمهورا كبيرا يامستر دكستر . يطالعونك بالانجليزية وفى الترجمة الالمانية ...

فرفع مارتنز حاجبيه وأجهد ذهنه فى التفكير فلم يصل الى تفسير لهذه الشهرة المفاجئة . ثم قال :

ـ اتقول أن الحجرة لمدة أسبوع ؟

ـ نعم .. نعم ...

ـ هذا كرم عظيم منك .

ـ ومستر شميث موظف الاستقبال هنا سيعطيك يوما بعد يوم تذاكر الطعام . ولكنى أظنك بحاجة الى شىء من النقود المحلية لنفقاتك

الشخصية . وسوف نتدبر هذا . وأما الغد فنظنك تريد أن تنفقه فى التفرج على المدينة فى هدوء من غير استقبالات . ولكن ستكون فى حاجة الى دليل . ونحن تحت تصرفك . أما بعد غد مساء فستكون هناك حلقة مناقشة هادئة فى دار المجمع العلمى . وموضوع الندوة الرواية المعاصرة . ونعتقد أنك لا تمانع فى القاء كلمة صغيرة لافتتاح الندوة ، ثم تتكرم باجابة على الاسئلة وادارة المناقشة .

وكان مارتنز مستعدا لقبول أى شىء حتى القاء محاضرة بشرط أن يتخلص بسرعة من مستر كرابن ويضمن الاقامة والغذاء لمدة أسبوع . فأجاب من وراء المنديل :

- طبعا طبعا .

- عفوك يامستر دكستر .. أتشعر بألم فى أسنانك ؟ أعرف طبيب أسنان ماهر جدا .

- لا لا لا ! ضربنى أحدهم بلكمة قوية . وهذا كل ما هناك .

فصرخ كرابن :

- ياللكارثة ! هل حاولوا أن يسرقوك ؟

- كلا . ضربنى جندى . لانى كنت أريد أن أهشم رأس كولونيله القذر ابن القذر !

ورفع المنديل عن وجهه ليرى كرابن شفته المقطوعة .

وحكى لى مارتنز كيف أن كرابن وقف مشدوها كأنما رأى شبحا . ولم يستطع مارتنز أن يفهم سر هذا الذهول : لانه لم يقرأ مطلقا مؤلفات معاصره العظيم بنيامين دكستر . وكان لا يعرف حتى اسمه . أما أنا فمن المعجبين جدا بعبقرية دكستر الكبير ولهذا فهمت سر ذهول كرابن . فهو من أصحاب الاساليب الرفيعة فى رقة يتهمه بعضهم من أجلها بالانوثة . وسنه نحو خمسين سنة . وهو مغرم بأشغال الابرة . أما المشاجرة مع الضباط وخشونة المصارعين فلم تعرف عنه أبدا .

- لم أكن أظنك من مقلدى رعاة البقر يامستر دكستر .

- ان الكولونيل كلفان لا يستحق غير ذلك .

- كلفان يامستر دكستر ؟ لم أسمع به من قبل .

- الم تسمع ايضا بهارى لايم ؟

فأجابه كرابن فى حذر :

- سمعت به . ولكنى لم أكن أعرفه شخصيا .

- أما أنا فكنت أعرفه . كان خير أصدقائى .

- آه ! ولكنى لم أكن أظنه من هواة الادب .

- لا أحد من أصدقائى يهوى الأدب !

طرف كرابن مرات متوالية خلف نظارته وقال :

- انه على كل حال كان يهتم بالمسرح والمسرح أدب وفن ، واحدى صديقاته ممثلة تأخذ دروسا فى اللغة الفرنسية بالمعهد . وحضر مرة أو مرتين لينتظرها ريثما تنتهى من الدرس .

- أهى شابة أم عجوز ؟

- أوه ؟ شابة . صغيرة جدا . ممثلة تافهة فى رأيى .

فتذكر مارتنز الفتاة التى كانت بجوار القبر وقد أخفت وجهها بين يديها . فقال :

- أحب أن أتعرف بجميع اصدقاء هارى هنا .

- انها ستحضر ولا شك الى محاضرتك .

- أهى نمساوية ؟

- تزعم هذا . ولكنى أظنها مجرية . وتعمل على مسرح جوزيف وأعتقد أن لايم ربما ساعدها على الحصول على أوراق الاقامة . وهى تسمى نفسها أنا شميت . وشميت اسم شائع جدا مثل شميت فى الانجليزية . فهل تتصور ممثلة انجليزية تحمل اسم شميت ؟ ولاسيما أنها رائعة الجمال ! ان هذا الاسم يبدو ملفقا .

وشعر مارتنز انه عرف من كرابن كل ما يريد معرفته . فاعتذر بالتعب من اثر السفر . ثم تناول منه ما يوازى عشرة جنيهات من النقود المحلية لمصروفه الشخصى وصعد الى حجرته وهو مسرور لحصوله على ما يوازى اثنى عشر جنيها فى ساعة .

وكان متعبا حقا . ولم يشعر بمدى تعبه الا حين رقد على الفراش من غير أن يخلع حذاءه واستغرق فى النوم فورا الى أن استيقظ مذعورا على رنين التليفون بجواره .

وصافح أذنه صوت به أثر خفيف جدا من لكنة أجنبية :

ـ مستر رولو مارتنز .

ـ هو نفسه ...

ـ انت لا تعرفنى . ولكنى من أصدقاء هارى لايم .

فسره ان يسمع أحدا يباهى بصداقة هارى لايم وشعر بميل الى المتكلم الغريب فقال له :

ـ يسعدنى جدا أن أقابلك .

ـ أنا فى هذه اللحظة على ناصية شارعك .

ـ ألا يمكن أن نؤجل المقابلة حتى الغد ؟ فأنى قضيت يوما شاقا حقا . لجملة أسباب .

ـ ان هارى كلفنى ان اسهر على راحتك بحيث لا ينقصك شىء . وكنت بجواره حين مات فأوصانى بك .

ـ كنت أظن ...

وكان يريد ان يقول : "كنت أظنه مات على الفور" .

بيد أن شيئا غامضا دفعه الى التزام الحذر فلم يقل ذلك بل قال :

ـ انك لم تذكر لى اسمك .

ـ كورتز .

وبعد لحظة استطرد الصوت المجهول يقول :

ـ كان بودى أن أحضر لزيارتك . ولكن دخول فندق ساشر ممنوع على النمساويين كما تعلم . وأنا هنا فى فندق ڤيينا القديمة .

ـ اتستطيع ان نتقابل فى فندق ڤيينا القديمة غدا صباحا ؟

ـ بالتأكيد . ان كنت واثقا تماما انك لن تحتاج لى من الآن الى الغد صباحا يامستر مارتنز .

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ كان هارى مشغول الخاطر بأنك لا تحمل نقودا نمساوية .

فقال مارتنز فى نفسه وهو راقد على ظهره والسماعة على أذنيه :

ـ كان ينبغى أن أحضر الى ڤيينا لاجمع ثروة !

فهذا ثالث شخص منذ وصوله أى منذ خمس ساعات من أشخاص لا يعرفهم اطلاقا يلقى عليه النقود القاء .

وقال مارتنز بحذر :

ـ استطيع أن أتدبر الامر الى ان نلتقى .

والحقيقة انه لم يجد مبررا لرفض العرض قبل أن يعرف ماهو بالضبط . وجاءه الصوت المجهول يقول :

ـ اذن هل يوافقك فى الحادية عشرة فى فندق ڤيينا القديمة فى شارع كارتنر ؟

ـ وكيف أعرفك ؟

ـ سأرتدى بدلة بنية اللون وأمسك فى يدى كتابا من كتبك ؟

ـ جميل . ولكن كيف حصلت على كتاب من كتبى ؟

ـ هارى هو الذى أعطانى أياه .

وكان الصوت ذا سحر خاص ويدل على رزانة . ولكن بعد أن وضع مارتنز السماعة جعل يفكر ويتساءل كيف لم يرسل هذا الصديق برقية اليه

ان كان هارى اتسع له الوقت قبل الوفاة ليوصيه به . ثم ألم يقل له كلفان ان لايم مات على الفور أو أنه لم يتعذب ؟

وفى هذه اللحظة بدأ يخطر فى عقل مارتنز ان حادثة وفاة لايم فيها عنصر مريب . وان غباء البوليس لم يتمكن من اكتشاف هذا العنصر .

وهذا العنصر هو الذى حاول رولو مارتنز أن يكتشفه بنفسه فى حجرته مستعينا بتدخين سيجارتين . بيد ان النعاس غلبه قبل أن يتعشى وقبل أن يحل هذا اللغز المعضل !

ـ كان أول ما نفرنى منه على الفور هو شعره المستعار .

هكذا أخذ مارتنز يروى لى مقابلته مع كورتز الصديق النمساوى لهارى لايم .

ـ انه نوع من التنكر لا يمكن أن يلبس على احد . فالشعر اصفر فاقع ومقصوص قصا واضحا غير متدرج من الخلف . وغير ملتصق التصاقا تاما . ولاشك ان هناك شيئا من السخف والريبة فى شخص لا يقبل آفة الصلع عن طيب خاطر ... وكان وجهه من تلك الوجوه التى ترتسم التجعدات فوقها بعناية وتنسيق تامين ، كأنه نوع من المكياج مقصود به اظهار السحر والروعة .

وكان هذا الحديث بينى وبين مارتنز يجرى بعد مقابلتنا الاولى ببضعة أيام وقد حضر بنفسه ليسرد على مسامعى قصته . واذا بفتاة عادية المظهر جدا تمر مسرعة تحت نافذة مكتبى بين أكوام الجليد المتساقط . فرأيت نظراته تتبعها فى الحاح وقد توقف عن السرد . فتنحنحت وقلت له :

ـ صبية مليحة . أليس كذلك ؟

ـ لاشك لكنى لم أتابعها بنظرى الا لانها ذكرتنى بأنا شميت لبضع ثوان فقط .

ـ ومن هى آنا شميت ؟ اليست فتاة من تلك الفتيات العابثات !.

ـ نعم .. ولا !

ـ ماذا تعنى ؟

- لقد كانت صديقة هارى .

- وهل تنوى ان ترثه فيها ؟

- انها ليست ذلك الطراز من النساء ياكالواى . ألم ترها فى جنازة هارى ؟. لقد قررت الا أتورط مع النساء ما حييت .

فابتسمت وقلت له :

- لا بأس . ولكنك كنت بدأت تحدثنى عن لقائك مع كورتز .

وكان قد وجد كورتز جالسا الى مائدة يقرأ فى كتاب من مؤلفات مارتنز اسمه "الفارس الفرد" فلما جلس مارتنز على مقعد بجواره قال له كورتز فى حماسة بدت لمارتنز غريبة ومزيفة :

- ان لك قدرة غريبة على تشويق القارىء والاستحواز على حواسه وانتباهه كأنه يلهث . انك بارع جدا فى هذا . ففى نهاية كل فصل يتساءل القارىء ...

فقاطعه مارتنز بلا مداراة قائلا :

- انت اذن كنت صديقا لهارى ؟

- بل خير أصدقائه فيما اعتقد ..

بيد أن كورتز أضاف بعد تردد قليل :

- بعدك أنت طبعا !

- اذن خبرنى كيف مات ؟

- كنت بجواره . وكنا قد خرجنا لتونا معا من البيت ، عندما لمح هارى فى الناحية الاخرى من الشارع شخصا كان يعرفه .. وهو أمريكى اسمه كولر .. فأشار بيده الى كولر يستوقفه . ثم أخذ يعبر الشارع كى يلحق به فى الجانب الآخر ، واذا بسيارة جيب تبرز من المنحنى فجأة وبقوة ، فألقت به على الأرض . وكان الخطأ خطأ هارى فى الواقع . وليس خطأ السائق .

ـ قيل لى أنه مات على الفور .

ـ كم كنت اتمنى لو أن ذلك كان صحيحا . ومهما يكن فقد مات قبل وصول سيارة الاسعاف .

ـ اذا كان فى استطاعته أن يتكلم ؟

ـ نعم . وحتى وهو فى أشد حالات عذابه كان مشغول الخاطر جدا بشأن موضوعك ؟

ـ وماذا قال ؟

ـ انا لا أذكر بالضبط نص كلامه يارولو . ولكن اتسمح لى أن اناديك باسم رولو ؟ انه الاسم الذى كان يذكرك به دائما عندما يكلمنا عنك . وقد اوصانى بالحاح أن أهتم بك بمجرد وصولك . وأن أتحرى كل مافيه راحتك بحيث لا ينقصك شىء . وأن احجز لك تذكرة العودة .

ـ ولكن لماذا لم تبرق الىّ لتمنعنى من الحضور ؟

ـ لقد فعلنا هذا . بيد ان البرقية لم تدركك . فنظام الرقابة ، وتقسيم البلد الى مناطق احتلال يجعل البرقيات تستغرق أحيانا خمسة أيام .

ـ وهل كان هناك تحقيق فى الحادث ؟

ـ بطبيعة الحال .

ـ وهل كنت تعلم أن لدى رجال البوليس هنا فكرة غاية فى السخافة عن هارى وكيف انه كان مشتركا فى سوق سوداء وفى غش تجارى ؟

ـ كلا . لم اكن اعلم هذا . بيد ان الناس جميعا فى فيينا يشتغلون بتجارة السوق السوداء . فكلنا هنا نتعامل للحصول على السجائر والعمل بوسائل منافية للقانون العسكرى .

ـ لقد حدثنى البوليس عن أمور أخطر من ذلك .

ـ أن الناس يتخيلون أحيانا أشياء فى غاية السخافة .

ـ أن فى نيتى أن امكث هنا الى أن ابرهن لهم على اخطائهم .

فالتفت كورتز بحركة فجائية ، تحركت بسببها طاقية شعره المستعار حركة يسيرة عن موضوعها ، وقال لى :

ـ وما الفائدة ؟ ان هذا لن يبعث هارى حيا .

ـ بل أريد أن أتسبب فى طرد ذلك الضابط من ڤيينا .

ـ لا أرى كيف ستتوصل الى ذلك .

ـ فى عزمى ان ابدا ابحاثى من لحظة وفاة لايم . لقد كنت انت حاضرا . وكذلك هذا الامريكى كولر . والسائق . وفى استطاعتك أن تعطينى عناوينهم .

ـ لا أعرف عنوان السائق .

ـ لا بأس . سأحصل عليه من قسم البوليس . فلابد أنه ثابت فى المحضر . ثم هناك تلك الفتاة عشيقة هارى .

ـ سيكون الحديث معها مؤلما لها جدا .

ـ لا يهمنى ما ستشعر به . اهتمامى كله موجه لهارى .

ـ وهل عندك فكرة عن شكوك البوليس يارولو ؟

ـ كلا . لم أعرف جميع التفاصيل لانى تسرعت بالغضب .

فقال كورتز بصوت يقطر نعومة ورقة :

ـ ألم يخطر لك انك ربما انتهيت بأبحاثك الى عكس المطلوب ، فأظهرت أشياء خافية لا تشرف هارى كثيرا ؟

ـ انى مستعد لمواجهة هذا الاحتمال .

ـ ستحتاج الى كثير من الوقت والمال .

ـ أما الوقت فعندى . وألم تعدنى انت أن تقرضنى نقودا ؟

ـ انى لست ثريا . صحيح انى وعدت هارى ان اهتم بك . وان امكنك من ركوب الطائرة للعودة الى انجلترا ..

- لا تهتم بالنقود ولا بالطائرة . ولكنى مستعد ان اراهنك بأن فى حادث وفاة هارى عنصراً مريباً .

وكان مارتنز قد ألقى بهذه العبارة عفوا ، فجاءت رمية من غير رام . وكل ما هناك انه كان يشعر فى قرارة نفسه بالريبة فى ظروف الوفاة . ولم يكن لديه ما يبرر استعمال كلمة قتل بدل وفاة .

وكان كورتز ممسكا بيده فنجان القهوة وقد أوشك أن يرفعه الى شفتيه . واذا بكلمة مارتنز تجعل يده تهتز . ثم وضع الفنجان وقال :

- ماذا تعنى بقولك "عنصر مريب" ؟

- أعنى أن وفاته أصبحت مشكلة أمام البوليس الذى يشتبه فيه . أصبحت مشكلة كذلك للمهربين الحقيقيين .

وأتم كورتز احتساء فنجان القهوة بهدوء غير طبيعى ، ثم قال وهو يرتشف الرشفة الاخيرة :

- من المسلم به أنى أتمنى لك حظا حسنا وتوفيقا . وان كنت لا أدرى بالضبط ما الذى يمكن أن تصل اليه . وأن وجدت نفسك فى حاجة مساعدة أرجو أن تتصل بى .

- اريد الآن عنوان كولر الامريكى .

- بكل سرور . سأكتبه لك .

وكتب العنوان على ورقة قدمها الى مارتنز قائلا :

- هاهو عنوانه . وهو فى المنطقة الامريكية .

- وعنوانك !

- كتبته لك تحت عنوان كولر مباشرة . وهو فى المنطقة الروسية .

ثم نهض كورتز . وابتسم ابتسامته المدروسة جيدا على طريقة أهل فيينا . وكأنما رسمت خطوط تلك الابتسامة بفرشاة رسام . وقال :

- اتصل بى دائما واطلعنى على ما تتوصل اليه أولا بأول : وان وجدت

انك محتاج الى مساعدة .. ومع هذا فانى الح عليك فى ان المهمة التى تريد أن تقدم عليها لا تدل على تعقل .

ثم أخذ من فوق المائدة نسخة كتابه وقال باسما :

- انى فخور جدا اذ تعرفت بك . فأنت أستاذ فى فن تشويق القراء واثارة اهتمامهم ؟...

وتركنى وانصرف . وأنا واثق أن ابتسامته المتقنة كانت نوعا من الشعر المستعار ، وأنه خلعها بمجرد أن اولانى ظهره .



الفصل الرابع

أنا شميت

كان مارتنز جالسا فوق مقعد صلب بالقرب من باب الممثلين فى داخل مسرح جوزيف استاد . وكان قد أرسل بطاقته الى أنا شميت وأضاف تحت اسمه كلمة "صديق هارى" .

وكان صف من النوافذ الصغيرة المحلاة بستائر من المخرمات ، تنطفىء فيه الانوار نافذة بعد نافذة . دليلا على مدى تقدم الممثلين والممثلات فى تغيير ثياب التمثيل للعودة الى بيوتهم بعد التجربة ليشربوا قدحا من القهوة بغير سكر ومعها بسكويت بغير زبد انتظارا لحفلة السهرة . وكان داخل المقصورات باردا جدا حتى لرجل يرتدى معطفا ثقيلا . ولهذا نهض مارتنز وراح يتمشى للدفىء ، تحت النوافذ الصغيرة وكأنه روميو أبله ليس متأكدا من استطاعته العصور على شرفة جوليت بين الشرفات .

وسمع فوق رأسه فجأة صوتا ينادى :

ـ مستر مارتنز !

فرفع عينيه نحو الوجه الذى أطل عليه من احدى النوافذ الصغيرة من فرجة بين الستائر على ارتفاع عدة أقدام من رأسه . ووصف لى ذلك الوجه قائلا :

ـ لم يكن وجها جميلا . وانما هو وجه صريح واضح ، له شعر أسود وعينان تبدوان فى ذلك الضوء الخافت بنيتين ، وجبين واسع ، وفم كبير يبدى كل محاولة للاغراء .

وقالت صاحبة الوجه لمارتنز :

- تفضل بالصعود . الباب الثانى على اليمين .

وعلق مارتنز على منظرها قائلا :

- هناك أشخاص يحس الانسان لاول وهلة انهم اصدقاء . فتشعر على الفور بالارتياح اليهم لانك تعلم أنك سوف لا تكون فى خطر من جهتهم مهما كانت الاحوال . وكانت أنا من هؤلاء الاشخاص .

وعلى خلاف مقصورات الممثلين . كانت هذه المقصورة بالذات عارية تقريبا . فليست فيها دواليب مكتظة بالثياب . ولا أنابيب أو معاجين للمكياج مبعثرة . ولا روب دى شامبر معلقا على الباب . بل كان هناك صندوق من الحديد الابيض به أدوات مكياج مستعملة . هو غلاية ينبعث منها نشيش الغليان فوقْ موقد غازى .

وسألته أنا :

- ألا تريد فنجانا من الشاى ؟ أن احدهم اهدانى فى الاسبوع الماضى لفافة شاى . والامريكيون فى العادة يقدمون للممثلات هذا الشاى بدلا من الازهار فى ليالى الافتتاح .

- سأتناول فنجانا بكل سرور .

هذا مع ان مارتنز لم يكن يكره شيئا فى الدنيا كما يكره الشاى !

وأخذ يراقب أنا وهى تعد الشاى . وكانت فى الواقع تصنعه صناعة سيئة جدا . ولا عجب أن تقول له :

- لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا يحب الانجليز الشاى الى هذه الدرجة !

وأخذ مارتنز يتجرع فنجان الشاى الساخن بسرعة كأنه دواء . ويرقبها وهى تحتسى فنجانها فى رشفات صغيرة انيقة . ثم قال لها :

- أردت أن أقابلك بخصوص هارى

وكانت هذه اللحظة الهائلة . فرأى فم الفتاة يتقلص انتظارا لما سيقوله .

فقال مارتنز :

- كنت اعرفه منذ عشرين سنة . كنت صديقه وزميله فى المدرسة

وبعد افتراقنا قلما كان يمضى شهر أو شهران من غير أن نلتقى .

ـ عندما أتونى ببطاقتك لم أستطع أن أرفض مقابلتك . ولكن فى الواقع ليس عندنا ما نتحدث فيه . لا شىء مطلقا .

ـ كنت أريد أن أعرف ...

ـ لقد مات . وهذا ختام المسألة . انه انتهى . فما جدوى الكلام عنه وبعث الماضى من مرقده .

ـ لقد كنا نحبه انت وانا ..

ـ لا أدرى

ـ لا تدرين ؟

ـ ان الانسان لا يستطيع أن يعرف شيئا كهذا بعد فوات الوقت . انى لم أعد أعرف شيئا سوى .. انى اتمنى لو مت أنا أيضا !

وقال لى مارتنز معلقا على الموقف :

ـ كنت أوشك فى تلك اللحظة أن أنصرف . فما جدوى تعذيب هذه الفتاة بسبب فكرة طائشة خطرت لى ؟ ومع هذا لم انصرف بل سألتها سؤالا لم أفكر من قبل فى توجيهه اليها :

ـ أتعرفين رجلا اسمه كولر ؟

ـ أهو أمريكى ؟

ـ يقال هذا ...

ـ أظنه الشخص الذى جاءنى بنقود بعد موت هارى . وكنت لا أريد أن أقبلها . لولا أنه أكد لى ان هذه كانت أرادة هارى فى آخر لحظات حياته . وأنه تعهد له بذلك .

ـ إذن هو لم يمت على الفور ؟

ـ أوه ! كلا !

وبدا مارتنز يتساءل بينه وبين نفسه :

- ما الذى أدخل فى رأسى على هذا النحو ان هارى مات فجأة ؟

وبعد قليل من التفكير تذكر مارتنز أن الذى قال له ذلك هو الرجل الغريب جار هارى فى مسكنه . ولذلك قال لآنا تعقيبا على كلامها :

- يبدو ان هارى احتفظ بقدر كبير من حضور ذهنه الى آخر لحظة . لانه فكر فى مصيرى كما فكر فيك . ويبدو أن ذلك برهان كاف على أنه لم يتعذب كثيرا .

- وهذا هو ما أحاول أن اكرره لنفسى طول الوقت كى اتعزى بعض الشىء عن فقده .

- وهل قابلت الطبيب ؟

- مرة واحدة . اذ كان هارى أرسلنى اليه . فهو طبيبه المعتاد ، وكان يسكن بالقرب من منزله جدا .

- والسائق ؟ هل سمعت أقواله ؟

- كان مضطربا جدا وخائفا . بيد أن أقوال كورتز ، وكولر كانت كافية لتبرئة ساحته . كلا لم يكن الخطأ من المسكين . وكثيرا ما سمعت هارى يقول عنه أنه يقود بحذر شديد .

- أهو أيضا كان يعرف هارى ؟

وفى هذه اللحظة سمع من الخارج صوت يصيح :

- الآنسة شميت !

- انهم لا يحبون ان نبقى هنا طويلا لان ذلك يستهلك الكثير من الكهرباء !

وكان فى نية مارتنز أن يمضى فى استجوابه الى النهاية بأى ثمن فقال :

- أن رجال البوليس يزعمون انهم كانوا على وشك القاء القبض عليه . لانهم اكتشفوا اشتغاله بالتجارة المحرمة والتهريب .

ووجدها تتلقى ذلك الخبر بالفتور نفسه الذى أبداه كورتز عند سماعه . اذ قالت :

ـ جميع الناس هنا يفعلون ذلك كل يوم .

ـ وأنا لا أظنه ارتكب شيئا خطيرا حقا .. ومع هذا شكوا فى أمره . أتعرفين أيضا رجلا اسمه كورتز ؟

ـ انه يرتدى شعرا مستعارا

ـ اوه !

فادرك مارتنز انه اصاب الهدف . فقال :

ـ الا ترين أنه من الغريب حقا أن يوجد الثلاثة هناك عند وفاته . وأنهم جميعا يعرفون هارى . حتى السائق . وحتى الطبيب الذى حضر لاسعافه كان يعرفه .

فأجابت فى هدوء اليأس :

ـ لقد خطرت لى هذه الفكرة . ومع هذا لم أكن أعلم أن كورتز كان حاضرا وقت الحادث . وكم تساءلت هل هارى مات قتيلا ؟ ولكن ما جدوى التساؤل ؟

ـ لابد لى من اكتشاف السر ..

ـ لا فائدة لذلك . فربما كان البوليس على حق . وكان المسكين هارى على صلة ببعض الاعمال المحرمة .

وفى هذه اللحظة نودى من الخارج اسم الآنسة شميت بمزيد من الحدة ، فتململت وقالت :

ـ يجب أن أنصرف !

ـ سأصحبك الى نهاية الشارع .

وكان الليل مخيما . والثلج قد انقطع عن السقوط منذ لحظة وقد غطى التماثيل الكثيرة المنتشرة فى الشوارع .

وقالت أنا وهى فى الطريق :

ـ من المستحسن ان تنفض كل هذا من ذهنك وتنسى .

ـ هل تسمحين لى بعنوان الطبيب ؟

ووقفا بجوار حائط الى أن كتبت له العنوان . فقال لها :

ـ وعنوانك أيضا .

ـ ولماذا تريد عنوانى ؟

ـ لأنى ربما كانت عندى انباء أريد ان ابلغها اليك .

ـ لا يمكن أن يسرنى نبأ بعد الآن .

ونظر اليها من بعيد وهى تصعد عربة الترام خافضة الرأس . لتتحاشى الريح فبدت له فى ثياب السواد فوق الثلج الذى أضاءه القمر وكأنها علامة استفهام صغيرة .

قال مدير البوليس كالواى راوى القصة :

ان مزية المخبر الهاوى على المخبر المحترف هى أن الهاوى ليس لديه ساعات عمل محددة . ولهذا لم يكن رولو مارتنز مرتبطا بمواعيد ولم يكن مضطرا أن يوقف نشاطه وأبحاثه فى وقت الغذاء . ولهذا استطاع فى يوم واحد أن يقطع مرحلة يستغرق الواحد من رجالى يومين على الاقل فى قطعها .

ومن جهة أخرى كانت له علينا مزية نادرة . هى كونه صديق هارى . لذلك كان يعمل بباعث نفسى داخلى . أما نحن فكنا نعمل من غير ذلك الباعث .

وكان الدكتور ونكلر فى بيته عندما سأل عنه مارتنز . فى حين لو سأل عنه ضابط بوليس لكان من المحتمل أن يقال له أن الطبيب فى الخارج . وكان مارتنز فى هذه المرة أيضا قد أضاف الى اسمه على البطاقة كلمة "صديق لايم" .

وكانت قاعة انتظار الدكتور ونكلر تبدو فى نظر مارتنز أشبه بحانوت العاديات . بل اشبه بحانوت متخصص فى قطع الفن الدينية . فهناك صلبان لا عدد لها . اقربها عهدا يرجع تاريخه الى القرن السابع عشر . كما كانت هناك تماثيل من الخشب ومن العاج وقطع من العظام عليها أسماء قديسين . وحتى الكراسى العجيبة الشكل المعدة للجلوس ، يبدو أنها كانت مقاعد للكهنة أو للقديسين والشهداء .

وكان الدكتور ونكلر أنظف طبيب رآه مارتنز فى حياته ! فهو قصير جدا . شديد الاناقة فى ثيابه السوداء وياقته العالية المنشاة . وشاربه الرفيع الاسود أشبه بربطة عنق السهرة . وأخذ يتنحنح مرارا كأنه أصيب ببرد بسبب افراطه فى النظافة !

ـ مستر مارتنز ؟

ـ نعم . الدكتور ونكل ؟

ـ لا . بل ونكلر

ـ أن لديك مجموعة بديعة ..

ـ نعم ..

ثم اخرج الدكتور ونكلر منديلا كبيرا أبيض ، وأخذ يتمخط فى دقة على دفعتين . كل دفعة منها من منخر ! وخيل الى مارتنز أنه سيرمى المنديل بعد ان استعمله على هذا النحو !

ـ أتسمح يامستر مارتنز ان تذكر لى الغرض من زيارتك ؟ ان هناك مريضا ينتظرنى .

ـ لقد كنا انت وأنا صديقين لهارى لايم ..

ـ كنت طبيبه الذى يستشيره باستمرار .

وبدا فى لهجته كالمتعنت الذى يريد أن يصحح وصفا .

ـ لقد وصلت يادكتور ونكلر متأخرا جدا فلم اشترك فى التحقيق وكان هارى قد دعانى للحضور كى اساعده . وان كنت لا أدرى فى ماذا ، ولم

اعلم بوفاته الا بعد وصولى .

ـ هذا شىء يؤسف له جدا .

ـ وفى مثل هذه الظروف لاشك أنك تدرك اهتمامى بجمع اكبر قسط من المعلومات الممكنة .

ـ وانا لا استطيع أن اخبرك بشىء لا تعلمه من قبل . فقد القى به على الأرض بصدمة من سيارة . وعندما وصلت كان قد مات .

ـ هل احتفظ بوعيه طويلا ؟

ـ برهة قصيرة جدا فيما فهمت . أثناء نقله الى البيت .

ـ وهل تألم كثيرا ؟

ـ ليس كثيرا على ما أذكر ...

ـ هل أنت واثق تماما أن الامر حادث غير مدبر ؟

فمد الطبيب يده وداعب به احدا الصلبان ثم قال :

ـ لم أكن موجودا وقت الحادث . وكل ما عندى ينحصر فى سبب الوفاة فهل لديك سبب يدعوك لعدم الاقتناع بأن الحادث قضاء وقدر ؟

ـ ان البوليس يزعم أن هارى كان يتاجر فى السوق السوداء . وأنا أظن أنه قتل . او لعله انتحر .

ـ ليس عندى ما أكون به رأيا فى المسألة .

ـ هل تعرف شخصا اسمه كولر ؟

ـ لا أظن .

ـ لقد كان موجودا هناك عندما أصيب هارى

ـ اذن لابد أنى رأيته . هل يضع شعرا مستعارا ؟

ـ كلا . فهذا اسمه كورتز .

ـ كان هناك رجل آخر .

ولاحظ مارتنز أن الطبيب يبدى رأيه بايجاز وكأنه يشخص حمى . بدرجات حرارة معينة لا أكثر . فقال :

- هل لك زمن طويل وأنت طبيب هارى ؟

والواقع أن مارتنز دهش لاختيار هارى لشخص مثل الدكتور ونكلر . فهو يعهد هارى يحب الاشخاص المنطلقين المندفعين .

وأجاب الطبيب قائلا :

- منذ سنة تقريبا

- كان كرما عظيما منك أن تستقبلنى يادكتور ونكلر .

فانحنى الدكتور ونكلر شاكرا . فسمع مارتنز صوتا صادرا عن قميصه كأنه مصنوع من الورق .

- لا أريد أن أجعل مرضاك ينتظرونك أكثر من ذلك .

ثم التفت وهو خارج نحو صليب من نوع شاذ . لان المسيح فيه مصلوب وقد سمرت يداه فوق رأسه لاعلى طول الذراعين . وقد ارتسمت على وجهه امارات عذاب فظيع . فسأل عنه الدكتور فقال :

- انه صليب جنسانى . نسبة الى أتباع جنسون من المجددين فى التفكير الدينى .

- ولماذا ذراعاه فوق رأسه ؟

فقال الدكتور ونكلر فى شىء من الضيق :

- لانه مات فى زعمهم من أجل الابرار المخلصين دون غيرهم .

قال كالواى :

وانى اذ اراجع ما سجلته فى مذكراتى . عن محادثاتى مع مارتنز . أجد أن مارتنز كان يستطيع حتى تلك اللحظة ان يغادر فيينا سليما معافى . فحتى مغادرته بيت الدكتور ونكلر . لم يكن رولو مارتنز فى خطر . وكان فى وسعه أن يذهب الى فراشه فى الفندق وينام هادىء البال . بل كان يستطيع

فى تلك اللحظة أن يذهب لزيارة كولر من غير أن يتعرض لخطر . فهو لم يثر بعد قلق أى انسان .

ولكن لسوء حظه . قرر بعد خروجه من بيت الطبيب ان يذهب مرة أخرى أمام مسكن هارى ، لانه رغب فى تجاذب أطراف الحديث مع الرجل القصير المنحرف المزاج الذى زعم له انه شهد الحادث بعينيه .

وربما كان هذا الرجل القصير المسمى هر كوخ كان قد أفرط فى الشراب . أو كان صدره منشرحا لتوفيقه للعمل ذلك اليوم . فانه حينما طرق مارتنز بابه هذه المرة أظهر له بشاشة . واستعدادا للكلام . وكان قد فرغ لتوه من الطعام وشاربه يحمل آثاره واضحة :

- آه ! أنا أذكرك جيدا ! أنت صديق الهر لايم !

ورحب بمارتنز فى مودة عظيمة وقدمه الى زوجته الضخمة التى كانت له عليها سلطة مطلقة ولاشك .

- فى غير هذه الظروف كنت أعزم عليك بفنجان من القهوة . ولكن فى الوقت الحاضر ...

وأخرج مارتنز سجائره ، وازداد جو التفاهم والمودة . وقال الهر كوخ :

- عندما طرقت الباب بالامس ، أجبتك فى شىء من الحدة . ولكنى كنت مصابا بصداع حاد . وكنت مضطرا أن أفتح الباب بنفسى لان زوجتى كانت فى الخارج . فأرجو أن تعفو عنى .

- هل قلت لى أمس انك رأيت الحادث بعينيك ؟

فتبادل الهر كوخ مع زوجته نظرة ، ثم قال لها :

- لقد انتهى التحقيق ياالزا . فلا ضرر فى الكلام . وفى استطاعتك ان تعتمد على فراستى . فهذا السيد صديق .

ثم التفت الى مارتنز وقال له :

- عندما أقول أنى رأيت الحادث فأنا اعنى فى الواقع اننى سمعته !

- سمعته ؟ ماذا تعنى ؟

- سمعت الفرامل والصدمة . فأسرعت الى النافذة كنت أراهم ينقلون الجثة الى داخل البيت .

- ولكنك لم تشهد فى التحقيق ؟

- من الخير دائما الا يختلط الانسان بهذه الامور . ومكتبى لم يكن فى استطاعته أن يتركنى أذهب للشهادة . لاننا نعانى نقصا فى الموظفين . ثم انى لم اشهد بعينى شيئا .

- ولكنك بالامس رويت لى كيف وقع الحادث .

- هذا هو التصوير الذى ذكرته الصحف .

- وهل تعذب كثيرا ؟

- بل كان ميتا . فقد نظرت من النافذة ورأيت وجهه . وأنا اعرف جيدا كيف تكون وجوه الموتى . فهذه تقريبا هى مهنتى لانى موظف فى المشرحة .

- ولكن الآخرين قالوا لى انه لم يمت على الفور .

- عسى أنهم لا يعرفون الموتى جيدا كما أعرفهم

- طبعا . كان قد مات عندما وصل الطبيب الدكتور ونكلر . وهو شخصيا أكد لى ذلك .

- نعم مات على الفور . وتستطيع أن تعتمد فى ذلك على كلمة رجل يعرف ما يقول فى هذا الموضوع .

- ومع هذا أرى يا هر كوخ انه كان من واجبك أن تدلى بشهادتك .

- ان كل انسان يا هر مارتنز يضمن سلامته على الطريقة التى تروق له . وأنا لست الشخص الوحيد الذى امتنع عن الشهادة .

- ماذا تريد أن تقول ؟

- لقد ساعد ثلاثة رجال على حمل الرجل المقتول الى البيت .

- اعلم هذا . كانوا رجلين والسائق .

ـ كلا . فقد بقى السائق واقفا حيث كان من قبل . لان المسكين كان مضطربا جدا لدرجة ...

ـ ثلاثة رجال ؟. صفهم لى .

بيد أن الهر كوخ لم يكن مدربا على ملاحظة الاحياء كما كان مدربا على ملاحظة الموتى . فلم يستلفت نظره الا الرجل ذو الشعر المستعار اما الاثنان الآخران فكل وصفه لهما لا بالطويلين ولا بالقصيرين . لا بالبدينين ولا بالنحيلين وكان قد بصر بهما من أعلى ، وقد انحنيا تحت حملهما الثقيل . ولم يرفعا وجهيهما فضلا عن أن الهر كوخ كان قد أسرع بتحويل عينيه عن المنظر ثم أغلق النافذة لانه أدرك على الفور أنه من غير المستحسن أن يظهر للناس حتى لا يدعى للشهادة ، وعقب على ذلك بقوله :

ـ فلم يكن من الممكن أن تكون لشهادتى قيمة يا هر مارتنز .

وشعر مارتنز أن الجو مريب ويوحى بوجود جريمة . فما الذى يدعوهم جميعا الى الكذب فى صدد لحظة الوفاة . فهذه الهدايا من النقود وتذاكر الطائرة المقصود بها اقفال افواه الصديقين الوحيدين اللذين يحبان هارى حقا من بين سكان ڤيينا . ثم من هو الرجل الثالث ؟

وبصوت مرتفع قال مارتنز :

- وهل رأيت الهر لايم وهو خارج ؟

ـ كلا ...

- وهل سمعت صرخة ؟

- لم أسمع الا صوت الفرامل ياهر مارتنز .

ففكر مارتنز فى تلك الظروف ، وكيف أنه لا يوجد دليل على وفاة هارى فى تلك اللحظة بالذات ، ماعدا أقوال كورتز ، وأقوال كولر والسائق . واما شهادة الطبيب فلا تدل الا على أن لحظة الوفاة لا تتجاوز نصف ساعة بيد أن هذه الشهادة لا يمكن أن تكون لها قيمة اكثر من قيمة كلام الدكتور ونكلر الذى يرتاب مارتنز فى نظافته المفرطة وهدوئه .

- يا هر مارتنز . هل ستقضى فترة فى ڤيينا ؟

- نعم ...

- ان كنت بحاجة الى مسكن . تستطيع أن تتصل بالسلطات العليا وتحصل على مسكن الهر لايم . لانه من الاموال المصادرة .

- ومن الذى يحتفظ بالمفاتيح ؟. هل استطيع أن أرى ذلك المسكن ؟

فنادى الهر كوخ :

- المفاتيح ياالزا !

ثم قاده الى الحجرات التى كانت مسكنا لهارى . وكان الدهليز المظلم معبقا بالرائحة المعطرة الخاصة بالسجائر التركية التى كان هارى يدخنها دائما .

ودهش مارتنز لان رائحة انسان تبقى فى ثنايا ستارة . بعد ان تحول الشخص نفسه الى تراب .

أما قاعة الصالون والمكتب فكانت عادية تماما . وقد صفت الكراسى بجانب الجدار . فلا ورق هناك ولا تراب فوق المائدة التى يستخدمها هارى فى الكتابة . أما خشب الأرض فكان يعكس الاضواء كالمرآة .

وفتح الهر كوخ بابا وأشار الى حجرة النوم . أما الحمام فلم يكن فيه أى دليل على انه استعمل منذ أمد طويل . وقال الهر كوخ :

- ان المسكن على استعداد كامل لاستقبال المستأجر الجديد . وكانت الزا هى التى تقوم بالتنظيف . وقد نظفت المسكن بعد الحادث .

وكان ذلك واضحا . فالمفروض بعد حادث وفاة أن يكون المسكن اكثر فوضى من ذلك . فالانسان لا يرحل فجأة فى أطول رحلة من غير ان يترك شيئا ينم عنه ، ولو صورة احدى النساء . ولهذا سأل مارتنز :

- ألم تكن هناك اوراق ياهر كوخ ؟

- لقد كان الهر لايم دائما رجلا منظما جدا . والحقيقة ان سلة المهملات كانت حافلة ، وكذلك كانت حقيبته . بيد أن صديقه حمل كل شىء .

ـ اى صديق ؟

ـ ذو الشعر المستعمار

ـ انى اعتقد ياهر كوخ ان صديقى مات مقتولا .

ـ مقتولا ؟

وانطفأت بشاشة الهر كوخ كما تنطفىء الشمعة عندما سمع تلك الكلمة . ثم قال :

ـ ما كنت لأتركك تدخل لو اننى توقعت منك أن تقول شيئا كهذا .

ـ ذلك لا يمنع أن شهادتك ستكون عظيمة القيمة .

ـ ليس عندى ما أشهد به . فانى لم ابصر شيئا . والأمر كله لا يعنينى . يجب ان تنصرف على الفور من فضلك . بعد الذى اظهرته من عدم المراعاة لنا .

وأسرع الرجل فقاد مارتنز الى الدهليز حيث كانت رائحة الدخان قد خفت حدتها . وكانت آخر كلمة قالها الهر كوخ قبل أن يصفق بابه بشدة :

ـ هذه مسألة لا تمسنى !

ياللهر كوخ المسكين ! اننا لا نختار الامور التى تمسنا !

وعندما بدأت فى استجواب مارتنز فيما بعد سألته :

ـ هل لمحت أحدا فى السلم أو فى الشارع عند خروجك ؟

ـ لا احد .

وكان واضحا أنه يستفيد كثيرا لو انه تذكر أى أحد من المارة فى الشارع يصادفه . ولهذا صدقت كلمته وهو يقول بعد ذلك :

ـ انى لاحظت أن الشارع يبدو هادئا وشبه ميت . فقد حطمت القنابل جانبا منه كما تعلم . وكان القمر ينعكس على الخرائب والاشجار وقد ساد الصمت المطبق فكنت أسمع الثلج يتكسر تحت قدمى ...

ـ تذكر ان هذا لا يدل على شىء .

- ماذا تعنى ؟

- أعنى ان هناك بدروما كان يستطيع أى شخص ان يختفى فيه بعد ان تبعك الى هناك .

- ممكن

- ولعل قصتك كلها ملفقة .

- ممكن ايضا .

- ولكن الذى يدهشنى انى لا أستطيع أن اعرف السبب الذى يمكن ان يدعوك للكذب . وأن كنت قد اخذت من الناس نقودا بطرق احتيالية . فأنت قد أتيت الى ڤيينا لتقابل لايم وتعمل معه فى صفقاته الاجرامية .

- وماهى هذه التجارة الغريبة التى تتشدق بها ؟

فقلت لمارتنز ردا على هذا السؤال الواضح :

- كنت جديرا أن أشرح لك الوقائع فى مقابلتنا الأولى ، لو لم تكشر عن أنيابك بهذه السهولة وبهذه السرعة . أما فى الوقت الحاضر فلا أظن من الحكمة أن اخبرك بكل شىء . لانى بذلك سأفشى لك معلومات رسمية . فى الوقت الذى ثبت لى فيه أنك تخالط اشخاصا لا يوحون بالثقة .

- ماذا تعنى ؟

- اعنى فتاة تحمل اوراق اثبات شخصية زورها لها لايم . ثم كورتز .

- والدكتور ونكلر ؟

- انى لم أقل بعد شيئا ضد الدكتور ونكلر . وفى حالة كونك شخصا معوجا وهو فرض ليس بالمستحيل فسوف تتيح لك هذه المعلومات فائدة كبيرة لا تجد لها لزوما لانها ستطلعك على المدى الذى وصلنا اليه فى تحرياتنا . ومن جهة أخرى نحن لم نرتب بعد جميع الوقائع ولم نجمع شتاتها .

- هذا لا يدهشنى . ففى استطاعتى ان ابتدع محققا جنائيا أفضل منك من غير عناء ...

لما عاد مارتنز الى الفندق بعد مقابلته للهر كوخ ، وجد فى انتظاره هناك رسالة من كرابن الملحق الثقافى الانجليزى يقول فيها :

ـ لقد حاولت أن أعثر عليك طيلة هذا النهار . لان من الضرورى جدا أن نتقابل كى نحدد معا برنامجك . وفى الصباح رتبت بالتليفون محاضرات تلقيها فى انز بروك وفى سالزبورج فى الاسبوع المقبل . بيد أنه من الضرورى أن أحصل على موافقتك فيما يتصل بالموضوعات كى يتسنى طبع البرامج والدعوات . وانى اقترح محاضرتين . احداهما عن تعرض العقيدة للخطر فى العالم الغربى . فأنت محترم جدا فى النمسا بوصفك كاتبا كاثوليكيا . ويجب أن تخلو هذه المحاضرة من كل عنصر سياسى . والموضوع الآخر الذى اقترحه هو "فنية الرواية المعاصرة" ويمكن أن تلقى هاتان المحاضرتان أيضا فى ڤيينا . وهناك أشخاص كثيرون يرغبون فى مقابلتك . ولهذا انوى أن أقيم حفلة كوكتيل فى بداية الاسبوع القادم . ولجميع هذه الاسباب اجدنى فى حاجة ماسة لمقابلتك .

وختم الملحق الثقافى رسالته برجاء محرج جدا لمارتنز :

ـ الا تنوى أن تحضر الندوة والمناقشة غدا مساء ؟ نحن ننتظرك فى الثامنة والنصف وغنى عن البيان أن الجميع متلهفون لحضورك . ولهذا سأرسل سيارة تحضرك من فندقك فى الثامنة والربع تماما .

ولم يستطع رولو مارتنز أن يفهمك ما وراء هذا اللغز المستمر . لان جهله التام بالحركة الثقافية والأدبية منعه من ادراك حقيقة ضخمة ، كهى وجود كاتب كاثوليكى كبير مشهور يحمل اسما كاسمه المستعار "دكستر" !

ولم يطل رولو مارتنز التفكير كعادته . وحسب الناس مشغولين به شخصيا فلم يهتم بكرابن ولا برسالته . وذهب الى فراشه على الفور .

الفصل الخامس

الحب

بعد كأسين من الكحول ، كان ذهن رولو مارتنز يتجه باستمرار نحو النساء ... نحو النساء بصورة غامضة ، عاطفية ، باعتبار جنسهن على العموم . وبعد الكأس الثالثة تبدأ أنظاره تتركز على امرأة معينة تكون فى دائرة وجوده .

ولو لم يكن كولر سقاه كأسا ثالثة لكان مارتنز على الارجح لم يتوجه بهذه السرعة إلى بيت آنا شميت ...

وكان مارتنز قضى ساعة الغذاء فى مطالعة ومراجعة ملخصات التحقيق . فلما شرب الخمر عند كولر وهو جائع مرهق الذهن ، كان تأثيرها عليه أشد من المعتاد . وتلك كانت غلطته الحاسمة .

وكان قد وصل الى مسكن كولر قرب الساعة الخامسة . ويقع هذا المسكن فوق محل للمثلجات فى المنطقة الامريكية . وكان البار أسفل المسكن مملوءا بالجنود الامريكيين ومعهم صديقاتهم اللواتى كانت رنات ضحكاتهن الطلقة تشيع مارتنز طوال السلم الذى صعده الى باب كولر .

والانجليزى الذى لا يطيق الامريكان يمكن أن يتصور نموذج الرجل الامريكى عى صورة كولر هذا . فهو رجل أشيب الشعر يدل وجهه على البشاشة والمودة . وله عينان طويلتان تدل على القلق . فهو مثل لذلك المحسن المتحمس الذى يجازف بنفسه وسط وباء التيفوس ، أو فى معمعان حرب عالمية ، أو فى مجاعة ببلاد الصين ، قبل أن يكون معاصروه قد اتعبوا أنفسهم فى تحديد الموقع على الاطلس !

وكانت بطاقة مارتنز فى هذه المرة أيضا تحمل جواز المرور المعهود "صديق هارى" وكانت قبضة كولر القوية الصريحة هى أعظم لفتة ودية التقى بها مارتنز فى ڤيينا . وقال كولر :

ـ ان كل صديق لهارى أرحب به . وقد سمعته يتحدث عنك كثيرا . كما أننى من هواة قصصك .

ووجد مارتنز نفسه يصدقه فى هذه المجاملة ، حيث لم يصدق كورتز عندما نطق بمثلها . وقال مارتنز على الاثر :

ـ لقد كنت حاضرا مصرع هارى . فهل لك أن تحدثنى عنه ؟

ـ كان شيئا فظيعا . كنت أعبر الشارع لالحق بهارى . وكان واقفا على الافريز مع مستر كورتز . ولعلنى لو لم أبدأ فى العبور لبقى حيث كان . ولكنه رآنى فنزل عن الطور ليقابلنى . وعندئذ برزت تلك السيارة الجيب . كان ذلك فظيعا . فظيعا جدا . وجذب السائق الفرملة . ولكن لم تكن أمامه أى فرصة لتجنبه . ألك فى قدح من الوسيكى يامستر مارتنز ؟ ان الحديث فى هذا الموضوع يهزنى هزا عنيفا .

وأضاف وهو يضيف المياه الغازية الى الويسكى :

ـ لم أر فى حياتى رجلا يموت من قبل

ـ والرجل الآخر ؟ هل كان فى السيارة ؟

فتجرع كولر رشفة طويلة . ثم نظر بعينه فى الكأس ليقيس ما سبق ثم قال فى عدم اكتراث :

ـ عن أى رجل تريد أن تتحدث يامستر مارتنز ؟

ـ لقد قيل لى انه كان هناك رجل ثالث .

ـ لا أدرى كيف وصل اليك هذا الخاطر . ولكنك ستجد ولاشك جميع التفاصيل فى محاضر التحقيق .

ثم صب كأسين من الويسكى مضاعفين واستطرد :

- كنا ثلاثة فقط كورتز والسائق وأنا . ثم حضر الطبيب طبعا . ولعلك تعنى بالرجل الآخر الدكتور ونكلر .

- ان الشخص الذى حدثنى عن الرجل الآخر كان ينظر صدفة الى الشارع من نافذته . وهو يشغل المسكن المجاور لمسكن هارى . وقد اخبرنى أنه أبصر ثلاثة رجال عدا السائق . وكان ذلك قبل حضور الطبيب .

- انه لم يذكر شيئا عن ذلك أمام المحكمة .

- لانه لم يشأ أن يتدخل فى التحقيق .

- من المستحيل أن نحمل هؤلاء الأوربيين على فهم مسئوليات والتزامات المواطن الصالح . كان من واجبه أن يتقدم للشهادة !

ثم هز كولر رأسه بأسف فوق كأسه وقال :

- انه لشىء غريب يامستر مارتنز . أعني ذلك الحادث . فمن المستحيل أن تجعل شهادتين بصدده تتفقان . تصور انه حتى مستر كورتز وأنا لم نتفق فى شهادتنا بخصوص بعض النقط !

- كيف ؟...

- ان الحوادث حين تقع بسرعة هائلة مفاجئة لا تسمح لنا أن نلاحظ جميع التفاصيل . واذا بهم فجأة يطلبون منك أن نتذكر كل شىء . وأنا أعتقد أن هذا الشخص الذى حدثك عما شاهده من النافذة قد اختلط عليه الامر بين ما رآه قبل الحادث وما رآه بعده . ولهذا لم يستطع أن يميز بين الرجال الاربعة الذين رآهم .

- أتقول الاربعة ؟

- بما فيهم هارى الذى رآه قبل الحادث مباشرة . ولكن ماذا رأى أيضا يامستر مارتنز ؟ ألم يقل لك شيئا آخر ؟

- لا شىء ذا بال . بيد انه يقول أن هارى كان ميتا عندما نقلتموه الى داخل البيت . كان ميتا تماما .

- أوه ! كان على وشك الموت . والفرق ليس كبيرا جدا . دعنى املأ لك كأسك يامستر مارتنز .

ـ كلا وشكرا . أظنني شربت ما فيه الكفاية .

ـ كما تشاء . سأشرب أنا جرعة أخرى . لقد كنت أحب صديقك كثيرا يامستر مارتنز . ولهذا فمن العسير على نفسي أن أتحدث عنه .

ـ أعطني اذن جرعة لاشاركك الشراب .

ومع الكأس الثالثة بدأ مارتنز يسأله :

ـ أتعرف أنا شميت ؟

ـ عشيقة هاري ؟

ـ بعينها .

ـ نعم أعرفها . أعني أني قابلتها مرة . وهذا كل شيء والواقع أني ساعدت هاري على تزويدها بأوراق الاقامة . وما كان لي أن أعترف بهذه الامور أمام اجنبي . بيد أن المبادىء لم توضع الا لتحرق . ومن واجب الانسان أن يكون انسانا قبل كل شيء .

ـ وما الذي كان يقف ضدها في مسألة الاقامة ؟

ـ انها بحرية . ويقال أن أباها كان نازيا . وكانت تشعر برعب فظيع خوفا من أن يعتقلها الروس .

ـ ولماذا يريد الروس أن يعتقلوها ؟

ـ لأن أوراقها غير مستوفاة .

ـ وهل حملت اليها نقودا من طرف هاري ؟

ـ طبعا . فلنترك هذا الموضوع . أهي التي أخبرتك ؟

ورن جرس التليفون ، فأفرغ كولر كأسه الى آخر قطرة .

ـ الو . نعم هنا كولر ...

ـ ثم جلس والسماعة على أذنه ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الصبر الاليم والتجلد . في حين كان الصوت البعيد جدا ينساب اليه ، وهو يقول بين الحين والحين .

ـ نعم . لقد أحسنت صنعا . طبعا طبعا لقد وعدتك وسوف أنفذ الاتفاق . طاب مساؤك .

ثم وضع السماعة ومر بكفه على جبهته فى حركة تدل على التعب وكأنه يريد أن يتذكر شيئا . واذا مارتنز يسأله :

ـ ألديك معلومات عن التجارة المريبة التى كان يشتبه البوليس فى قيام هارى بها ؟

ـ كلا . وهذا شىء مستحيل . لان هارى كان شخصا يقدس الواجب ولا يمكن أن يحيد عنه .

ـ ان كورتز يعتقد أن هذا ربما كان صحيحا .

ـ ان كورتز نمساوى ولا يستطيع أن يفهم رجلا انجلو سكسونيا .

كان الليل قد أرخى سدوله عندما أخذ مارتنز يشق لنفسه طريقا بمحاذاة القنال . ومر أمام باب البوليس الحربى المضاء . وكان الجنود الاربعة أعضاء الداورية الدولية يهمون بركوب الجيب . وجلس الجندى الروسى بجانب السائق ، لان الروس كانوا فى تلك الليلة قد تسلموا السلطة لمدة الاسابيع الاربعة القادمة . وركب الانجليزى والفرنسى والامريكى فى الخلف .

وكان دخان الكأس الثالثة قد أخذ يدور فى تلافيف دماغ مارتنز .

فتذكر الفتاة التى عرفها فى امستردام . ثم فتاة باريس . وأخذت عزلته الموحشة تثقل عليه وهو سائر بمفرده وسط زحام الناس . فتجاوز منعطف الشارع المؤدى الى فندقه . واستأنف السير فى الطريق . وقد ركبه الاندفاع الحيوانى فقاده بقوة قاهرة نحو الفتاة الوحيدة التى كان يعرفها فى فيينا .

ولما سألته كيف استطاع معرفة مكان بيتها وحده ، قال :

ـ وأنا راقد فى فراشى أخذت أدرس خريطة فيينا فى الليلة السابقة . وتعرفت على عنوانها الذى كانت قد أعطتنى اياه . وكنت اريد ان اتدرب

على السير وحدى فى شوارع المدينة . فاستطعت أن أحفظ الطرق وأسماء الشوارع .

وكان يجهل بطبيعة الحال ان كانت موجودة فى بيتها أم لا . اللهم الا اذا كان قد قرأ اعلانات المسرح وعرف منها أن التمثيل موقوف تلك الليلة . وعلى كل حال كانت أنا فى بيتها . وكانت جالسة وحدها فى حجرتها الباردة من غير نيران . وكان فراشها أريكة استقلت فوقها لتراجع أوراق دورها المتناثرة على منضدة غير مستقرة ، وبذهن مشتت بعيد كل البعد عن جميع تلك الاشياء .

وقال لها مارتنز فى ارتباك :

ـ لقد حضرت وأنا سائر من هذا الطريق لالقى عليك التحية .

ـ سائر من هذا الطريق ؟ ذاهب الى أين ؟

والواقع أن بيت أنا يبعد مقدار نصف ساعة عن فندق مارتنز ومسكنها فى الاطراف وليس على طريق شىء . مما يمكن أن يقصده سائح . بيد أنه استطاع أن يجد جوابا على ذلك السؤال .

ـ لقد شربت مع كولر كثيرا جدا من الويسكى . فوجدت نفسى بحاجة الى السير مسافة طويلة . ووجدت نفسى فى أطراف المنطقة الانجليزية قرب بيتك بمحض الصدفة .

ـ ليس عندى ما أقدمه . اللهم الا الشاى . فعندى بقية منه .

ـ كلا وشكرا .

ونظر الى الأوراق التى أمامها ثم استطرد :

ـ أراك مشغولة .

لم أستطع أن أحفظ أكثر من سطر واحد .

ـ اتسمحين لى بالبقاء لحظة ؟

ـ يسرنى أن تبقى .

فألقى بنفسه على الاريكة . وقد ذكر لى بعد ذلك أنه فى تلك اللحظة نظر

اليها بمعنى الكلمة للمرة الثانية . فرآها واقفة أمامه . مرتبكة كارتباكه . مرتدية بنطلونا قديما مصنوعا من الفانلة مما يرتديه الرجال . وقد قعره ترقيعا سيئا . وكانت واقفة منفرجة الساقين وقفة تدل على الاصرار والثبات فى المقاومة . وقد تجردت من كل رشاقة أو رقة كأنها تحتفظ بكل نصيبها منهما لحرفته . فسألها مارتنز :

- هل أنت فى يوم من أيام الكآبة والانقباض ؟

- ان هذه الساعة دائما من أسوأ الساعات عندى . فهى ساعته . وعندما سمعتك ترن جرس الباب ظننت لمدة ثانية واحدة ...

ثم تهاوت فوق مقعد صلب فى مواجهته واستطردت :

- تكلم أرجوك . فان كنت تعرفه فحدثنى عنه بأى شىء .

فأخذ يكلمها . وفى أثناء ذلك اسودت صفحة السماء وراء زجاج النافذة . ثم لاحظ بعد برهة أن أيديهما تشابكت .

وقال لى مارتنز عن تلك اللحظة :

- لم يكن فى نيتى مطلقا أن أعشق ... عشيقة هارى .

- وكيف حدث ذلك ؟

كان الجو بارداً جدا . فقمت لاسدل ستائر النافذة . وعندئذ اكتشفت وأنا أحرك يدى أننى منمسك بيدها ! ولما وقفت نظرت من أعلى الى وجهها المرفوع نحوى . والمزعج أنه لم يكن وجها جميلا ! كان وجها عاديا جدا . وجها للاستعمال اليومى والشعرة الرتيبة . وجها يقاوم البلى والسأم والاستهلاك . حتى لقد خيل الى أنى دخلت دولة غريبة لا أعرف لغتها . لانى كنت أظن دائما أن الانسان يحب فى المرأة الجمال . فوقفت أمام ستائر النافذة أنظر الى الخارج . ولم أستطع أن أرى سوى صورتى فى الزجاج . وسمعتها تقول : "استمر . ماذا فعل هارى عندئذ ؟" .

وأوشكت أن أقول لها فليذهب هارى الى الشيطان . لقد مات وكنا نحبه كلانا بيد أنه مات . والموتى لا يصلحون الا للنسيان ! ولكنى لم أقل شيئا من هذا بل قلت لها : "ماذا تظنينه فعل ؟ لقد اكتفى بأن صفر لحنه القديم

كان شيئا لم يحدث اطلاقا !" ... وأخذت أصفر لها على قدر معرفتي ذلك اللحن . فصرخت صرخة مكتومة ، فقلت لها :

ـ انه مات . ولن يسعك أن تقضى بقية حياتك فى تذكره .

ـ أعلم هذا . ولكن ربما حدث شيء ...

ـ ماذا تريدين أن تقولى ؟ ما الذى يمكن أن يحدث ؟

ـ أريد أن أقول أننى ربما مت كما مات .

ـ بل ستنسينه من الزمن . وتحبين مرة أخرى .

ـ أعلم هذا . ولكن رغبة لى فى ذلك . الا ترى أنى لا أشتهى ان احب من جديد ؟

وعندئذ غادر رولو مارتنز النافذة وجلس بجوارها على الاريجة . وقبلها بنصف دقيقة كان صديق هارى الذى يحاول تعزية عشيقة هارى . أما الآن فهو رجل عاشق لآنا شميت التى كانت من قبل عاشقة لرجل آخر يعرفانه كلاهما وكان اسمه هارى لايم .

وتلك الليلة لم يقص عليها شيئا من ماضيه مع هارى . بل أخذ يحدثها عن مشاهداته وأسفاره . ثم عن الاشخاص الذين قابلهم فى فينا . فقال لهم عنهم :

ـ أنا لا أصدق ما قاله لى ونكلر . أما كولر فأجده لطيفا . وهو الشخص الوحيد بين أصدقاء هارى الذى دافع عنه . والمزعج أنه ان كان كولر على صواب . فلابد أن كوخ على خطأ .

ـ ومن هو كوخ ؟

فشرح لها أنه عاد الى مسكن هارى . وقابل جاره كوخ . ثم روى لها حديثه مع كوخ وقصة الرجل الثالث ـ فقالت :

ـ أن صح هذا . فالمسألة جد خطيرة .

ـ هذا لا يدل على شيء .

ـ لماذا ؟

ـ ان كوخ افلت من التحقيق . فمن الجائز ايضا ان ذلك الرجل الثالث المجهول فعل مثل كوخ وتوارى من مضايقات التحقيق

ـ لا تقولي شيئا سخيفا كهذا . اننا حضرنا لكى تجعلنا الصدفة نكشف هذه المرة شيئا هاما له قيمته فى مسألتنا .

ـ اذا أنتظرك هنا . واذهب أنت لتتحدث الى كوخ . واسأل أولا لماذا يقف جميع هؤلاء الناس هنا . فانى أكره الزحام . وان كان ذلك يبدو غريبا لصدوره عن امرأة تحترف الوقوف على خشبة المسرح !

فتقدم مارتنز وحده ببطء ، والثلج يطقطق تحت كعبيه . ولم يكن هذا الزحام اجتماعا سياسيا . لانه لم ير أحدا يتكلم أو يحاضر او يخطب . بل رأى الرؤوس تستدير لتنظر اليه وهو يقترب منها كأنما هم ينتظرون قدوم أحد . فلما وصل الى الصفوف الاولى تبين بصورة قاطعة ان الجمهور مجتمع أمام البيت فعلا . وسأله رجل جعل يحملق فيه :

ـ أأنت منهم أيضا ؟

ولم يفهم مارتنز . فسأله مستفسرا :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ هل أنت من البوليس ؟

ـ كلا . ولكن ماذا فعل البوليس ؟

ـ ظلوا يروحون ويرجعون طول النهار .

ـ ولكن لماذا يقف جميع هؤلاء هنا ؟

ـ انهم ينتظرون .

ـ ينتظرون ماذا ؟

ـ ينتظرون أن يخرجوه من البيت .

ـ يخرجون من ؟

ـ الهر كوخ .

فظن مارتنز ان احدا اكتشف تهرب الهر كوخ من الشهادة امام المحقق . مع ان هذا طبعا لا يمكن ان يثير البوليس هكذا . فعاد يسال

ـ ولكن ماذا صنع الهر كوخ ؟

ـ لا نعرف بعد ماذا صنع ، وهم فى الداخل لم يصلوا بعد الى راى حاسم .

ـ رأى حاسم فى ماذا ؟

ـ لم يعرفوا بعد هل هو انتحار أم جريمة قتل .

ـ الهر كوخ انتحر ؟

ـ ربما . أو لعله قتل !

ـ أتعنى أنه مات ؟

ـ طبعاً .

وفى هذه اللحظة اقترب طفل صغير من الرجل الذى كان يزوده بهذه المعلومات وجذب الرجل من يده وهو يناديه :

ـ أبى .. أبى !

وكان وجه الطفل مجعداً أزرق اللون من البرد وفوق رأسه طاقية من الصوف وعيناه تتوهجان بالذكاء .

ـ نعم ياحبيبى ماذا تريد ؟

ـ سمعتهم ياأبى يتكلمون من وراء السور .

ـ يالك من ماكر صغير . وماذا سمعت ياهانزل ؟

ـ سمعت فراو كوخ زوجة الهر كوخ تبكى .

ـ أهذا كل شىء ياهانزل ؟

ـ كلا ياأبى . سمعت أيضا الرجل الكبير جدا يتكلم .

ـ وماذا قال ياهانزل ؟

- قال لها يافراو كوخ أرجو ان تصغى لى هذا الزائر الاجنبى .

- آه ! هذا معناه أنهم يظنون فى الأمر جريمة . وهذا معقول فما الداعى ان يقطع الهر كوخ رقبة نفسه فى البدروم ؟

- أبى . أبى .

- ماذا أيضا ياهانزل ؟

- لقد نظرت من السور الحديدى فرأيت دماء فوق الفحم .

- وما أدراك أنها دماء وسط هذا الثلج المنهمر الذى يغطى كل شىء ؟

وكان جواب الطفل مفاجأة غير منتظرة فانه لم يجب على سؤال أبيه . بل حملق فى وجه مارتنز بجد وثبات . وقال فجأة لابيه بصوت جاد النبرات :

- أبى هذا الرجل أيضا أجنبى .

فضحك الرجل مقهقها وقال لمارتنز فخورا بصغيره :

- أرأيت ياسيدى ؟ ان هانزل واسع الخيال بصورة خارقة . وقد ألف كتبا عندما يكبر . لقد تصور أنك انت الذى قتلت كوخ . بمجرد أنك أنت أيضا أجنبى كأنهم يشتبهون فى أجنبى . كأنما ليس فى ڤيينا فى أيامنا هذه من الاجانب عنها أكثر مما فيها من بينها ومن النمساويين !

- أبى أبى !

- ماذا ياهانزل أيضا ؟

- هاهم يخرجون !

واذا بصف من البوليس يحيط بالنقالة المغطاة وهم يهبطون بها السلم فى حذر خوفا من انزلاق أقدامهم على الجليد . وقال والد هانزل :

- لم يستطيعوا ادخال سيارة الاسعاف الى هذا الشارع بسبب الخرائب . ولهذا سيحملونه على الايدى الى زاوية الشارع حيث السيارة .

وظهرت فراو كوخ فى باب الشارع فى ختام الموكب . وكانت تغطى رأسها بشال . وتضع على كتفها معطفا قديما . وتقدم أحدهم فساعدها

على النزول عن الافريز وسط الثلج . وطافت بعينيها فى هذا الجمهور من الغرباء .

والحق انه حتى لو كان بينهم صديق تعرفه لما استطاعت المسكينة أن تعرفه وهى فى هذه الحالة من الاعياء ومن الالم الذى بلغ بها حد الذهول . فلما مرت امام مارتنز أسرع متظاهرا بربط حذائه . ولكنه عندما انتصب واقفا وجد نفسه تحت رحمة نظرات هانزل الثاقبة . فأسرع مارتنز عائدا الى آنا . ولما التفت وراءه وهو سائراً لمح الطفل يجذب أباه من يده ليهمس اليه بشىء .

وقال لآنا بمجرد وصوله اليها :

- قتل كوخ . فهيا بنا من هنا بسرعة .

وكان يمشى بأسرع ما يسمح به الثلج بالسير . ودخل من شارع ، ثم دلف الى شارع آخر . وهو يتصور فراسة ذلك الطفل تتابعه فى كل مكان كأنها طوفان لا مهرب له منه . وكانت آنا تقول له وهو شارد :

- اذا صدق كوخ حين قال أن هناك رجلا ثالثا . لابد أنها جريمة تلك التى وقعت لهارى . فان الانسان لا يقتل رجلا كى يخفى شيئا أقل من جريمة قتل كان هذا الرجل يهدد بكشف النقاب عنها .

وفى نهاية الشارع كان الترام يجلجل ذاهبا وعائدا . فقال مارتنز :

- من المستحسن أن تعودى وحدك الى بيتك . أما أنا فسأختفى الى أن تمر الأزمة شيئا ما .

- ولكن أحدا لا يمكن أن يشك فى أمرك .

- بل انهم بدأوا يبحثون فعلا فى أمر ذلك الاجنبى الذى زار كوخ بالأمس . فلابد أننى سأواجه بعض المتاعب فى الفترة القادمة .

- ولماذا لا تذهب بنفسك لمواجهة البوليس ؟

- ان ادراكهم محدود جدا . ولا أثق بهم . ثم لا تنسى أننى ضربت ذلك الكولونيل كالواى وسوف يشرح صدورهم أن يضعوا ايديهم على بأى

حجة . واقل ما يستطيعون هو نفيه من فيينا . اما ان انزويت قليلا فلا يستطيع أحد أن يرشد عن شخصى سوى كولر .

ـ وكولر لن يجسر أن يرشد عنك .

ـ هذا ان كان هو المذنب . بيد أنى لا أعتقد أنه مذنب .

وقبل أن تفارق مارتنز قالت له :

ـ كن حذرا جدا . كوخ لم يكن يعرف الا القليل ومع هذا قتلوه . وأنت تعرف ما يعرفه كوخ وربما أكثر .

وظل هذا التحذير يشغل بال مارتنز طول الطريق الى الفندق . والشوارع بعد الساعة التاسعة تكون مقفرة . لهذا جعل مارتنز يتلفت حوله فى كل خطوة . وكلما سمع على الثلج وقع قدم . خيل اليه أن الرجل الثالث الذى استمات الآخرون فى حمايته يتعقب آثاره فى الظلام .

وفى الفندق قيل له :

ـ الكولونيل كالواى سأل عنك ياسيدى . وستجده فى البار فقال مارتنز ، وهو يخرج مسرعا من الباب الى الشارع :

ـ سأعود حالا !

فانه كان بحاجة الى وقت للتفكير . ولكنه ما إن خرج من الباب حتى تقدم رجل وقال بحزم وهو يرفع يده الى الكاسكيت بتحية عسكرية :

ـ من فضلك ياسيدى ...

وفتح له باب سيارة كاكية اللون تحمل الراية الانجليزية . ودفعه الى الركوب فيها . فلم يقاوم مارتنز . لانه لم يجد فائدة للمقاومة .



حديث أدبى

كان السائق يقود السيارة الكاكية اللون بسرعة شديدة جدا الى حد الخطورة حتى أن مارتنز احتج . بيد أن السائق كان يرد بزمجرة لا يفهم منها الا كلمة أوامر . فسأله مارتنز :

- وهل الاوامر التى لديك أن تقتلنى ؟

وفى هذه المرة لم يحظ مارتنز بأى جواب . ثم دخلت السيارة فى منحنيات كثيرة لشوارع سيئة الاضاءة جدا . بحيث عجز مارتنز عن معرفة اتجاه الحقيقى .

- هل المسافة بعيدة ؟

فلم يجبه السائق بل لم يظهر عليه انه سمع ، وقال مارتنز لنفسه :

- انى لست مقبوضا على والا لأرسلوا حرسا مع السائق . فلابد اذا انها دعوة من البوليس للادلاء بأقوال أو شهادة .

وقفت السيارة . وأخذ السائق مارتنز الى الطابق الثانى من بيت . ورن جرس باب كبير . واذا به يسمع من وراء الباب ضجة أصوات . فاستدار الى السائق ليسأله فى غيظ :

- ما هذا بحق الشيطان ؟

ولكنه وجد السائق قد هبط السلم وانفتح الباب الكبير على مصراعيه . فزاغت عينا مارتنز للضوء الباهر الذى فاجأه . وسمع صوت كرابن يصيح :

- أوه ! مستر دكستر ! لقد كنا فى قلق شديد لغيابك . ولكن هذا التأخير خير على كل حال من عدم الحضور اطلاقا . فاسمح لى ان اقدمك للسيدات .

ورأى مارتنز أمامه مائدة بوفيه حافلة بفناجين القهوة . وجمهرة من الناس معظمهم يلبس نظارات . فنظر مارتنز خلفه نحو الباب فوجده أقفل . وجذبه كرابن من يده ليتناول قدحا من القهوة ثم يستأنف المناقشة .

- ولكنى لم أعد شيئا للالقاء .

- لا عليك . ان أديبا راسخ القدم مثلك سيجد المجال يفتح له أفق الحديث بسهولة .

وتقدم أحد الشبان فوضع فى يده فنجان قهوة . وقفز شاب آخر فوضع فى الفنجان السكر قبل أن يقول مارتنز أنه يحب القهوة سادة . وقال الشاب الأول فى أذنه :

- أتسمح يامستر دكستر بعد الجلسة فتوقع لى بامضائك كتابا من كتبك ؟

وتقدمت سيدة ضخمة ترتدى ثوبا من الحرير الاسود . فهجمت عليه قائلة :

- أنا صريحة ، الحقيقة أن كتبك لا تعجبنى . لان الرواية فى نظرى يجب أن تقص علينا حكاية جميلة قبل كل شىء .

فقال كرابن بسرعة :

- أرجوك يامسز باندك . انتظرى من فضلك الى وقت الاسئلة .

- أعلم أن صراحتى متطرفة . ولكنى واثقة أن مستر دكستر يقدر النقد النزيه الشريف كل التقدير .

- طبعا . طبعا . أرجوك أن تشرب يامستر دكستر فنجانك بسرعة كى تدخل على قاعة المحاضرات فهى مكتظة هذا المساء .

ووجد مارتنز نفسه وقد دفع دفعا كما يساق الخروف إلى الذبح . وجلس

يحملق فى الناس وصوت الطفل هانزل يرن فى أذنه . ويخيل اليه انم نظراته الفاحصة تلاحقه . ولهذا لم يفقه جيدا ما قاله كرابن من استعراض طويل لفنون الرواية المعاصرة . ولدور روايات دكستر فيها . ثم ختم كرابن حديثه بأن أعلن فتح باب الاسئلة التى توجه الى مستر دكستر ليجيب عنها .

ولم يفهم دكستر من السؤال الأول ولم يعرف ماذا يقول . فأسرع كرابن وسد الفراغ باجابة حازت الاستحسان العام ، ثم نهضت سيدة ترتدى قبعة بنية اللون وحول عنقها قطعة فراء فسألت بشغف :

- هل لى أن أسأل مستر دكستر أهو مشغول فى هذه الايام بكتابة عمل جديد من أعماله المحبوبة ؟

- طبعا . طبعا

- أيمكن أن أعرف عنوانه ؟

- الرجل الثالث !

وشعر مارتنز بالثقة بنفسه ترتد اليه لانه نجح فى هذا الرد .

- يامستر دكستر أتستطيع أن تقول لنا من هو الكاتب الذى كان له فيك اكبر الأثر من الناحية الفنية ؟

فقال مارتنز من غير تفكير :

- جراى ...

وسره أن هذا الجواب لاقى قبولا عاما واقتناعا . ماعدا نمساويا عجوزا صاح :

- جراى ؟ أى جراى ؟ أنا لا أعرف هذا الاسم .

فظن مارتنز نفسه بمنجاة من الخطر فصاح :

- زين جراى طبعا . فأنا لا أعرف سواه !

ففوجىء مارتنز بالضحكات تنبعث من الجالية الانجليزية . وتدخل كرابن بسرعة .

- انها فكاهة صغيرة من مستر دكستر . فهو يعنى طبعا الشاعر جراى . فهو عبقرى رقيق عذب الاسلوب والاحساسات .

- وهل اسمه زين جراى ؟

- هذا هو موضع الفكاهة . فزين جراى كاتب رخيص مبتذل لا يؤلف الا الروايات الشعبية عن رعاة البقر .

- انه ليس اذن كاتبا عظيما .

- بل انه ليس كاتبا بالمعنى الصحيح مطلقا . وهذا هو موضوع التهكم الذى قصد اليه كاتبنا الكبير مستر دكستر .

وشعر مارتنز على الفور أن كرامته الحقيقية فى كفة الميزان . صحيح أنه لم يزعم فى يوم من الايام أنه كاتب بالمعنى الأدبى . ولكن حملة كرابن على مؤلفى روايات رعاة البقر حزت فى نفسه فى ظروف غير ملائم . فصرخ :

- ولماذا لا يكون كاتبا بمعنى الكلمة ؟

- لانه طبعا مجرد مسل للجماهير .

- وماذا كان شكسبير ؟

فصرخ أحد الحاضرين :

- كان شاعرا

- هل قرأتم زين جراى ؟ أقرأته أنت يامستر كرابن .

- لا أستطيع أن اقول انى قرأته .

- فأنت تتكلم عن شىء لا تعرفه .

وانقذ أحد الحاضرين الموقف فسأله :

- وجيمس جويس ؟ فى أى طبقة من الكتاب تضعه ؟

- ليس فى نيتى أن أضع أحدا فى أى موضع !

وكان صبره قد نفذ . ولكن السائل قد الح بدماثة :

- أقصد هل تعتبره من كبار الكتاب ؟

- لا أريد أن أخفى عنكم الحقيقة . أنا لم أسمع به من قبل ! ماهو نوع الكتب التى يؤلفها هذا الرجل ؟

وناهيك بالضجة الهائلة التى حدثت فى القاعة . اذ فسروا رده على أنه احتقار وتجاهل تام لهذا المعاصر القديم . ورفع أحد الشبان النمساويين أصبعه وسأله عن دافنى دى مورييه . فهمس كرابن فى أذن مارتنز :

- أرجوك أن تكون واسع الصدر متسامحا لجهلهم .

ونظر مارتنز الى الشاب ولم يجبه . وهمس كرابن :

- هل من المكن أن تقول لهم شيئا عن توجيه الوعى الاخلاقى ؟

- توجيه ماذا ؟

- أرجوك يامستر دكستر . ان هؤلاء الناس يحبونك جدا . ومتشوقون لسماعك وأنت تعبر عن أرائك . لقد حضروا منذ ساعات .

وانهمرت أسئلة أخرى عن جالزورثى وبريستلى ومورجان . ومارتنز لا يفكر فى شىء الا فى الهر كوخ . وهل كانت زيارته له هى السبب فى قتله ؟

ولم يستطع أن يتذكر سلوكه أو أقواله فى بقية المناقشة ، ولاشك ان كرابن وجد صعوبة شديدة فى انقاذ الموقف . الى أن قادة أحد الشباب الى منضدة فوقها أكوام من الكتب وطلب منه أن يوقعها فقام بذلك فى سرعة كى يتخلص من هذه الورطة . وكلما فرغ من توقيع كتاب نودى على صاحبه فتسلمه بعد أن ينحنى للكاتب العظيم فى اجلال . وأخذ الجمع ينفض قليلا قليلا .

ولمح مارتنز جنديا من جنود البوليس الحربى . وخيل اليه أن الجندى نطق باسمه . وكان بيده أخر كتاب يوقعه . ففرغ من ذلك بسرعة وأسرع نحو الباب . فوجد أن كرابن يتحدث مع البوليس الحربى الذى أشار اليه قائلا :

ـ وهذا السيد ؟

ـ انه مستر دكستر الكاتب المشهور .

وتجاهل مارتنز وسأل أحد الشبان :

ـ أين دورة المياه هنا ؟

ـ الباب الثانى على اليسار فى الدهليز .

وفى طريقه ، تسلم مارتنز معطفه من العامل المختص ثم هبط السلالم . فلمح بين السائق الحربى الذى لكمه فشق شفته يصعد من أسفل وكان ذاهبا للتعرف عليه واحضاره . ففتح مارتنز أول باب صادفه ، ودخل ثم أغلقه خلفه الى أن سمع خطوات بين تجتاز الباب .

وكانت الحجرة التى دخل فيها مظلمة . وسمع فيها أنينا غريبا جعله يتلفت . ولم يبصر شيئا فى الظلام وسكن الصوت . فتحرك حركة يسيرة جدا . فعاد الصوت وهو أشبه بأنفاس ملاهثة . فوقف مكانه واختفى الصوت !

وفى الخارج كان أحدهم ينادى باصرار :

ـ مستر دكتسر ! مستر دكستر !

فظهر الصوت . وفى هذه المرة كان همسا يتصاعد من الظلام . فهتف :

ـ من هناك ؟

فسكن الصوت ولم يعد يتحمل . فأخرج ولاعته . وحاول جملة مرات أن يشعلها ففشل . فشعر بحركة فى الظلام وصليل سلاسل . فهتف ثانية :

ـ من هناك ؟

ولم يسمع إلا ذلك الصوت المعدنى . فجعل مارتنز يتحسس على الحائط يمينا وشمالا باحثا عن زر النور الكهربائى . وهو فى حالة رعب شديد .

وسمع بين حركة وهو فى السلم فأضاء نوره . ثم فتح بين الباب . والتفت مارتنز ليرى ماذا فى الحجرة . فأبصر عينين مستديرتين كالزجاج الملون . هما عينا ببغاء فى قفصه الحديدى ! .

وقال السائق بكل احترام :

ـ كنا نبحث عنك يا سيدى لأن الكولونيل كالواى يريد أن يتحدث إليك .

ـ لعلك ضللت الطريق .

ـ نعم يا سيدى هذا ما قدرناه .

وكان قد وصلنى تقرير محدد مختصر جدا عن تحركات مارتنز من اللحظة التى بلغنى فيها أنه لم يستقل الطائرة إلى انجلترا . وكان قد شوهد فى صحبة كورتز . ثم فى مسرح « جوزيف استاد » . وكنت على علم بزيارته للدكتور ونكلر . ثم لكولر . وعودته إلى المنزل الذى كان يسكنه لايم .

ولا ادرى كيف أن مخبرى فقد أثر مارتنز فيما بين مسكن كولر ومسكن آنا شميت ، وورد فى تقريره أن مارتنز ظل يتجول هنا وهناك على غير هدى . وظن أن هذا التجول الغرض منه تضليل المخبرين المكلفين بتعقب آثاره .

وحاولت أن أقتنصه فى الفندق . ولكنه أفلت . وكانت الحوادث قد اتجهت اتجاها مقلقا . ولهذا قررت أن الوقت قد أزف لكى أجتمع به اجتماعا جديدا . لأنه يلزم لى الكثير من التفسيرات لحركاته .



وقدمت سيجارة إلى مارتنز . وأجلسته أمامى . بعد أن جعلت بينى وبينه حاجزا كافيا هو عرض مكتبى الضخم .

ووجدته متضايقا ولكنه مستعد للكلام والاجابة . فى حدود معينة . فسألته أسئلة مختلفة عن كورتز ، ويخيل إلى أن إجاباته عنه كانت صريحة ومرضية .

وبعد ذلك سألته فى شأن آنا سميت ، واستطعت أن أخرج من إجاباته بأنه كان قد ذهب إلى زيارتها بعد انتهائه من زيارة كولر ، فسدت هذه الإجابة فراغا أو ثغرة من الثغرات .

وحولت الحديث بعد ذلك إلى الدكتور ونكلر ، فأخذ يحدثنى عنه عن غير صعوبة . فقلت له بعد ذلك :

ـ إنى أراك قمت بجولة كبيرة ، فهل اكتشفت شيئا فيما يختص بمسألة صاحبك هارى لايم ؟

فأجابنى ساخرا :

ـ نعم !

ولم يزد على ذلك ، فسألته :

ـ وما الذى اكتشفته ؟

ـ اكتشفت شيئا كان تحت أنفك ، ولكنك لم تره !

ـ وما هو ؟

ـ إنه مات مقتولا !

فوقع منى هذا القول موقع المفاجأة ، وكان ذهنى متجها فى الواقع إلى أن المسألة قد تكون انتحارا للتخلص من الفضيحة ، ولكنى بعد ذلك كنت قد عدلت حتى عن ذلك الغرض ، وبهذا سألته :

ـ اتستطيع ان تزيدنى إيضاحا ؟

فحاول أن يروى لى القصة كلها من غير أن يشير إلى كوخ ، بل حدثنى عن شاهد ابصر الحادثة حين وقوعها ، فأصبح حديثه بسبب هذه التعمية غامضا .

ولم استطع أن أدرك لأول وهلة لماذا كان يعلق أهمية كبيرة على وجود من يسميه بالرجل الثالث .

وصارحته بعجبى ، فقال :

ـ ان هذا الشاهد لم يتقدم إلى التحقيق والشهادة .

ـ هذا شىء أعرفه .

ـ واكثر من هذا ان الآخرين كذبوا فى أقوالهم لتغطية موقف هذا الرجل الثالث .

ـ إن شاهدك فعل ما فعله الرجل الثالث الذى تتحدث عنه .

ـ ماذا تعنى ؟

- اعنى ان كليهما لا اعرف عنه شيئا . ولم يتقدم أحد منهما للإدلاء بأقواله .

- ولكن ما سبب عدم تقدم الرجل الثالث ؟

- وما سبب عدم تقدم شاهدك ؟

- إن شاهدى لم يتقدم جبنا منه ، وحتى لايورط نفسه فى عداوات وصلات مع البوليس .

- والرجل الثالث الذى تزعمه أو يزعمه شاهدك هذا ربما كان تخلفه للتقدم عن الشهادة لسبب غير إجرامى .

- مثل ماذا ؟

- كأن تكون زوجته كانت تحسبه فى مكان أخر ، فالرجال هنا كثيرا ما يكذبون على زوجاتهم ليذهبوا إلى مواعيد غرامية .

لا أظن هذا كان موعدا غراميا يا كالواى .

- ربما كان موظفا متغيبا عن عمله بدون إذن ، وهذا شىء غير نادر الحدوث فى ڤيينا .

- إن المسألة فى اعتقادى أشد تعقيدا من هذا .

- وما مبرر هذا الاعتقاد ؟

- إن الشاهد الذى حدثنى عن الرجل الثالث قتل بعد ذلك ، لأنهم يجعلون ولا شك أن كان هذا هو الشىء الوحيد الذى رآه ذلك الشاهد حين نظر من نافذته .

- وصلنا .. أنت إذن تريد أن تتحدث عن كوخ ؟

- نعم ...

- فيما نعلم أنت كنت أخر شخص رأى كوخ حيا .

وكنت قد سألته لأكتشف ما عنده عن كوخ ، ولهذا قلت :

- إن البوليس النمساوى يرغب رغبة شديدة فى أن يلصق بك تلك

الجريمة ، وفراو كوخ ذكرت لمفتش البوليس النمساوى ان زوجها ظل منزعجا جدا من زيارتك ، فمن كان على علم بالزيارة ؟

فقال مارتنز فى شىء من الاضطراب :

ـ لقد تحدثت عنها إلى كولر . وربما كان كولر بعد انصرافى من عنده تكلم بالتليفون وذكر كل الذى قلته له لشخص آخر : للرجل الثالث ، ولهذا اضطروا أن يغلقوا فم كوخ .

وعندئذ أدهشت مارتنز بالنبأ الذى واجهته به قائلا :

ـ ياعزيزى . عندما كانت تروى لكولر أقوال كوخ ، كان كوخ قد مات فعلا وانتهى أمره !

فحملق مارتنو مذهولا ، ثم سألنى :

ـ كيف ؟

ـ إن المسألة كما عرفناها كالآتى : فى تلك الليلة سمع كوخ ضوضاء ، فنهض ، ونزل إلى البدروم ..

ـ إذن الحمد لله أن هذا يخرجنى من الاتهام لأنى كنت فى الفندق .

ـ ولكن كوخ كان قد دخل فراشه تلك الليلة فى ساعة مبكرة جدا ، لأن زيارتك كانت قد أصابته بصداع مضاعف وغثيان .

ـ فى أى ساعة نهض من فراشه على الضجة ؟

ـ بعد الساعة التاسعة بقليل ، وأنت كما تعلم عدت تلك الليلة إلى الفندق فى الساعة التاسعة والدقيقة الثلاثين فأين كنت فى هذه الفترة ؟

ـ كنت أتجول فى الشوارع وأحاول أن أتبين حلا للمشكلة بقدر الإمكان ، لأن ذهنى كان مشوشا جدا .

ـ هل عندك شاهد أو دليل على ذلك ؟

ـ كلا ..

وقصدت بذلك أن أبث فى قلبه الخوف ، ولهذا لم أقل له إنه كان فى

الواقع متبوعا باستمرار بمخبرين سجلوا خطواته خطوة خطوة وهو يتجول فى الشوارع ، ولهذا كان تحت يدى الإثبات الكامل لبراءته من قتل كوخ .

وليس معنى هذا إنه كان بريئا فى نظرى براءة تامة من الجريمة كما يزعم ، فإن صاحب السكين أو الضارب بها ليس هو دائما المجرم الحقيقى او مدبر الجريمة أو المحرض عليها .

ونجحت فعلا فى إشعاره بالخوف ، وسمعته يقول :

ـ هل لى أن أدخن سيجارة ؟

ثم سألنى بعد أن أشعل سيجارته :

ـ وكيف عرفت أننى ذهبت إلى زيارة كوخ ؟

ـ أنت قلت ذلك .

ـ بل اظنك لم تبعث فى طلبى بهذه الصورة الجبرية إلا لأنك علمت أنى كنت آخر من رأى كوخ حيا .

ـ تحريات البوليس النمساوى ..

فرفع سبابته فى وجهى محذرا وقال :

ـ إنى أعلم أن البوليس النمساوى لم يستطع التأكد من الشخصية التى قالت فراو كوخ أن زيارته أزعجت زوجها جدا .

ـ إذن أعلم أنك بمجرد أن فارقت كولر ، اتصل بى تليفونيا ، وأخبرنى بكل شىء دار بينكما وبحديثك عن كوخ .

ـ إن هذا العمل من جانبه كاف لبراءته .

ـ ولماذا ؟

ـ لأنه لو كان مشتركا فى هذه العملية الإجرامية لما شعر بحاجة إلى أن يروى لك حديثى .. أعنى مسألة كوخ .

فأجبته مستدركا :

ـ ربما يكون كولر من الحصافة بحيث افترض انك ستأتى عندى لتقضى بالمعلومات التى لديك بمجرد أن تسمع بوفاة كوخ .. وعلى فكرة ..

ـ ماذا ؟ ..

ـ كيف سمعت بوفاة كوخ ؟

فأخذ يروى لى بكل صراحة وبغير تردد الظروف المحيطة بذلك فصدقته ، ومنذ تلك اللحظة بدأت أصدق بغير تحفظ كل ما رواه إلى ...

وأصر بعد ذلك على أن كولر برىء ...

ـ إنى مستعد للمراهنة بأى مبلغ على أنه برىء ...

ـ لماذا .... ؟

ـ لأنه واحد من هؤلاء الأمريكيين الذين يحسون بالواجب إحساسا خارقا للعادة .

ـ وهذا بالضبط ما قاله لى فى التليفون ليعتذر عن الوشاية بك متعللا بأنه تربى على تقديس واجبات المواطن الصالح ، ولكنى لا أخفى عنك أن كولر هذا لا أستطيع أن أهضمه .

ـ مسألة مزاج ..

ـ بل مسألة تجارة فى السوق السوداء ، تجارة مطاط .

ـ أتعنى إنه أيضا عضو فى عصابة للتهريب ؟

ـ طبعا ، ولكن المسألة ليست خطيرة ، فكل ما استطاع أن يربحه لا يزيد على ثلاثين الف دولار ، ثم يجب أن نتذكر شيئا فأنا شخصيا لست نموذج المواطن الصالح .

ـ وهل كان هذا النوع من التجارة هو الذى يشتغل به هارى ؟

ـ كلا ...

ـ اى نوع هو ؟ طعام ؟

ـ بل اشياء اخطر واشد ضررا بل إجراما من كل ذلك ...

ـ اقول لك الحق يا كالواى ان قتل كوخ اثر فى نفسى كثيرا وجعلنى اميل الآن للاعتقاد بأن إيمانى فى نزاهة هارى لم يكن فى موضعه تماما ، وانه من المحتمل أن يكون صديقى منغمسا فى عمليات وبيلة جدا ، ولكنى اعتقد شيئا آخر يخفف من جرمه .

ـ وما هو ؟

ـ إن ضميره تحرك فحاول التراجع واعتزال هذا النوع من التجارة الحرام وهذا هو السبب فى انهم قتلوه ، لأنه يعرف أسرارهم .

ـ أو لعله طالب بزيادة نصيبه ، أو على الأصح طالبوه بزيادة أنصبتهم فى الغنائم فرفض ، ولهذا قتلوه ...

وتقبل كلماتى من غير غضب هذه المرة ، بل إنه قال :

ـ قد نختلف فى التعليل ، ولكنى أعتقد أنك على حق فيما اتهمت به صديقى الراحل ، ولهذا أعتذر لك عما بدر منى فى أول يوم .

وشعرت أنى مدين له مقابل معلوماته بمعلومات أخرى عن صديقه وقضية موته ، مهما كان وقعها شديدا على نفسه .

الفصل السابع

الصدمة

قلت لمارتنز :

« سوف أكشف لك الآن عن المعلومات والوقائع الخاصة بقضية هارى لايم حتى يتسنى لك أن تدرك القضية على حقيقتها قدر المستطاع .

« وقد تكون فى تلك المعلومات صدمة لك، بل لاشك فى أن الصدمة ستكون شديدة عليك ، فإن الحرب ، ثم السلام الذى أعقبها - إن صح أن يسمى ما نحن فيه الآن سلاما - سمحا لعدد من الناس أن يقوموا بعمليات محرمة فى ميدان التجارة والسوق السوداء ، فى مواد مختلفة ، وهذه العمليات تتفاوت فى درجة سفالتها وخطورتها . ولكن أسفلها وأخطرها من غير شك هو ذلك النوع الذى قام به هارى لايم .

« إن الذين يتاجرون بالأقوات فى السوق السوداء ، لهم عذرهم الواضح على الأقل ، فى إنهم يقدمون إلى الناس طعاما هم فى أشد الحاجة إليه ، ويمكن أن يقال مثل ذلك عن جميع من يتاجرون فى المواد الضرورية ويبيعونها بسعر فاحش ، ولكن تجارة البنسلين تختلف عن هذه التجارات كلها اختلافا كليا .. فالبنسلين فى النمسا لايرد إلا إلى المستشفيات العسكرية ، فالأطباء المدنيون ، حتى من يعملون منهم فى مستشفيات مدنية ، لا يستطيعون الحصول على البنسلين بالوسائل القانونية .

« ويمكن أن نقول أن تهريب البنسلين وبيعه لهؤلاء بأسعار فاحشة جدا كان فى أول الأمر عملا لا ضرر منه فى الحقيقة ، لأنه لولا ذلك لما أمكن الحصول على هذا الدواء السحرى لكثيرين ممن تتوقف حياتهم عليه .

• وكان البنسلين يسرق من المخازن العسكرية ويباع بأسعار مذهلة تصل إلى سبعين جنيها للحقنة الواحدة ، فالضرر فى هذه التجارة ناتج عن الاجحاف بالمريض الذى لا يملك من المال ما يمكنه من دفع هذا الثمن ، ولكن بغير ذلك لم يكن من المستطاع حصول أحد من الأغنياء أو الفقراء على السواء ، على شىء من هذا العقار .

• واستمر سوق هذه التجارة على هذا النحو مدة من الزمن ، وبين الحين والحين كان أحدهم يقع تحت يدنا ، وتوقع عليه العقوبة القانونية ، ولكن هذه العقوبة ، وتدقيقنا فى الرقابة على المهربين والسارقين لم يثمرا إلا ازدياد الشعور بالخطر ، فلم تتوقف التجارة الحرام ، بل ارتفعت أثمان المهربات والسلع بنسبة ازدياد ذلك الخطر .

• ثم ظهرت فى الميدان قوة تنظيمية جديدة لهذه التجارة ، فقام كبار المهربين بتنظيم عصابة ضخمة ، تشترى البنسلين المسروق من السارق الأصلى ، وتتولى هى تصريفه بوسائلها ، ويتلقى السارق الأصلى ثمنا أقل من ذى قبل ، نظير تمتعه بضمانات تؤمن ظهره ، فمتى قبض على واحد من اللصوص ، استخدمت العصابة رؤساءها ذوى الثراء والجاه والنفوذ ، وبذلت كل الجهود للإفراج عنه .

• ويجب ألا ننسى ما فى النفس البشرية من خفايا والغاز ، فالسارق الصغير يشعر ببعض الراحة حتما بينه وبين ضميره الملتوى وهو يعمل تحت أمرة رئيسه .. فالرئيس يحمل مسئولية الأمر والتعليمات ، واللص له عذره من اعتبار نفسه أداة تنفيذية للأوامر ليس إلا ، فكأنهم فى نظر أنفسهم أطهار كالموظفين سواء بسواء .

• وكانت هذه هى المرحلة الثانية فى تاريخ هذه التجارة السوداء ، ولم تلبث المرحلة الثالثة أن ظهرت عندما خطر لأقطاب تلك العصابة الضخمة أن الأرباح التى يحصلون عليها ليست كافية ، ولاسيما أنه لم يعد من المستحيل بين يوم وليلة أن يباح تداول البنسلين فى السوق الحرة ، لهذا أرادوا أن يجمعوا اكبر قدر من الأرباح فى اقصر مدة قبل أن تنتهى هذه الفرصة الاستثنائية المؤقتة .

• وبدأت العصابة تخلط البنسلين بالماء الملون فى حالة حقن الزيت ،

او تخلطه بالبودرة العادية أو الطباشير الناعم فى حالة المسحوق .

، وعندى متحف صغير فى درج من أدراج مكتبى سأطلعك على عينات منه تؤيد صدق قولى » .

وفتحت الدرج وأخرجت له تلك العينات ، ولكن يظهر أنه لم يدرك المعنى الكامن وراء تلك الخطوة تمام الإدراك ، إذ قال لى :

ـ اظن أن الدواء فى هذه الحالة يفقد فاعليته .

فأجبته على الفور قائلا :

ـ لو أن الأمر وقف عند هذا الحد الذى تشير إليه لما أزعجنا كل هذا الإزعاج ، ولما صورناه فى صورة جريمة قتل .

ففغر مارتنز فمه وحملق بعينيه ثم قال :

ـ وكيف يمكن إن يكون ذلك جريمة قتل ؟

ـ أريد منك أن تفكر فى المسألة بمزيد من الدقة، إن هذا الخلط أو الغش لا شك يفقد البنسلين تأثيره الشافى ، ولكن هل نسيت أن الجزء السليم من الحقنة سوف يطعم الجسم بمادة البنسلين بمقادير خفيفة لا تكفى للشفاء ولكنها تكفى جدا لتعويده على هذه المادة . بحيث يفشل كل علاج له فى المستقبل بحقن سليمة فى ذلك العقار . وهذا طبعا أمر فى غاية الخطورة ، ولاسيما للمصابين بالأمراض التناسلية كالزهرى ، وهذه الأمراض منتشرة فى فيينا بشكل شنيع نتيجة الفوضى مدة الحرب وما بعدها ، وكثرة ورود جنود من جنسيات مختلفة ورحيلهم ..

ـ إن الأمر يبدو فظيعا حقا .

ـ ثم إن وضع الرمل والطباشير فى أجسام الناس لشفاء جروحهم البليغة ، أشبه بصب ماء النار بدلا من صبغة اليود ، وعندى إحصائية للضحايا الذين فقدوا ذراعا أو ساقا بسبب ذلك ، ومنهم أيضا من فقدوا حياتهم كلية .

ـ وهذا أفظع .

ـ وافظع منه ما شعرت به عندما توجهت إلى زيارة مستشفى الأطفال المركزى فى فيينا ، وقد رأيت بنفسى نتيجة استخدام هذه الحقن المغشوشة ، وكيف مات عدد من الأطفال لا يستهان به .. واشد من هذا فظاعة أن عددا من هؤلاء الأطفال لم يموتوا بذلك الدواء ، ولكن فقدوا عقولهم إلى الأبد ، ويمكنك الآن أن تذهب لتراهم فى قسم الأمراض العقلية بالعشرات !

ورأيت مارتنز يغطى وجهه بيديه ، فقلت له :

ـ إن المسألة تبدو أفظع مما يحتمل حين نفكر فيها بجد ، أليس كذلك ؟

فرفع مارتنز رأسه بين يديه وطالعتنى عيناه الصريحتان وهو يسألنى :

ـ ولكنك للآن لم تقدم لى الإثبات على أن هارى ....

فقاطعته قائلا :

ـ سأقدمه إليك ، فلا تتحرك من موضعك وأعرنى سمعك .



وأخرجت ملف لايم وشرعت أقرأ ، ورقة بعد ورقة ، وكانت التقارير الأولى لا تتضمن إلا أدلة ظنية واستنتاجية وشبهات ، وأخذ مارتنز يتململ فى مقعده ضيقا بهذه المصادفات التى يعلق عليها المخبرون فى تقاريرهم أهمية يبدو أنه ليس هناك ما يبررها .

فهم يذكرون مثلا أن لايم شوهد فى موضع ما ، فى ساعة معينة ، وأنه يتردد على أشخاص معينين من المشبوهين ، فصاح مارتنز :

ـ ولكن هذه الدلائل يمكن أن يوجد مثلها ضدى أنا الآن ..

فقلت له :

ـ رويدك لحظة أخرى .

ولسبب غير واضح كف لايم عن التزام خطة الحذر ، وربما كان قد فهم أننا نشك فى أمره ، فدفعه هذا الإحساس إلى نوع من التبجح والجنون :

وكان لايم يشغل مركزا ممتازا جدا ، واصحاب هذه المراكز هم اقرب الناس إلى الاندفاع الجنونى بسبب غرورهم واستكبارهم عن الخوف والاحتياط .

وكنا قد وضعنا أحد مخبرينا فى المستشفى العسكرى الانجليزى .

وكنا أيضا قد عرفنا من قبل اسم الشخص الذى يقوم للعصابة بالسرقة من هناك ، ولكننا لم نكن وصلنا بعد إلى معرفة الرأس المدبر .

وكان هذا السارق أو الوسيط شخص يدعى هاربن ، وبدأنا نضيق عليه الخناق ، ثم أكرهناه عندما ضبطناه متلبسا على أن يقوم لنا بدور الوسيط ، وهذا عمل من النوع المتبع فى المخابرات السرية ، حين يكرهون جاسوسا للأعداء أن يعمل جاسوسا مزدوجا ، تحت تهديد الإعدام ، أو تحت إغراء العفو ، وبهذا يتوصلون إلى معرفة أسرار العدو وإعطائه معلومات زائفة توقعه فى حبائلهم .

ولكن هاربن هذا لم يتمكن من أن يقودنا إلى أكثر من كورتز .

وصاح مارتنز فى دهشة :

- كورتز ! ولكن لماذا لم يقبضوا عليه ؟

- إن ساعة الصفر توشك أن تدق ، فصبرا ، وكان وصولنا إلى كورتز خطوة كبيرة إلى الأمام ، خطوة كبيرة جدا ، لأن كورتز كان على اتصال مباشر بلايم ، وكان يشغل وظيفة صغيرة فى قسم الخدمات والمساعدات الاجتماعية ، وكان يتبادل مع لايم أحيانا مكاتبات بسبب العمل ، وداخل هذه المكاتبات كان يرفع إليه مذكرات عن التهريب والصفقات وأعمال هاربن ، ولاسيما فى الحالات المستعجلة .

وقدمت إلى مارتنز صورة فوتوغرافية لمذكرة قصيرة قائلا :

- اتستطيع أن تتعرف على هذا الخط ؟

- إنه خط هارى .

وتركته يقرأ المذكرة إلى آخرها وسمعته يقول :

- ولكنى لا أرى فيها شيئا يدينه .

- كلا ، ولكن اقرا الآن هذه المذكرة التى أمليناها على هاربن موجهة إلى كورتز ، ثم لاحظ ان مذكرة لايم كانت ردا عليها ، ولاحظ التاريخ ، اقرا الاثنين معا .

وقرأ المذكرتين مرتين ، ثم قلت له :

- أرأيت ما الذى أعنيه ؟

وأظننا لو كنا فى يوم القيامة ، لما سمحت الظروف بكثرة الكلام ، ولاشك فى أننا كنا فى يوم القيامة بالنسبة لمارتنز !

أجل إن دنيا بأسرها انتهت فى تلك اللحظة بالنسبة له ، دنيا بأسرها من الثقة ، ومن الصداقة السهلة ، ومن الإعجاب ببطل إعجابا بدأ قبل ذلك بعشرين عاما ، فى ردهة مدرسة بانجلترا .

وجلس مارتنز أمامى يتطلع إلى يديه ولا يقول شيئا ، وقد علت وجهه غبرة الموت ومرارته ، فأخذتنى به هزة من الشفقة ، ونهضت فأحضرت من دولابى زجاجة من الويسكى فصببت منها قدحين كبيرين جدا وقلت له وأنا أضع القدح فى يده :

- اشرب هذا .

فأطاعنى كما لو كنت طبيبة ، وملأت له قدحا آخر ، فقال ببطء :

- أواثق أنت أنه هو الزعيم الحقيقى للعصابة ؟

- إن هذا هو كل ماوصلنا إليه .

- لقد وصلتم إليه لأنه كعهدى به يميل دائما إلى القفز قبل أن يتبين موضع قدميه ..

ولم أحاول أن أعارضه أو أكذبه .. مع أنه أعطانى عن لايم صورة مختلفة تماما فى أحاديثنا السابقة ، لأنى أدركت أنه يبحث عن العزاء أو التخفيف من ألمه بأى شكل .

وسمعته بعد ذلك يقول مستطردا فى محاولاته :

ـ وماذا لو أن لايم كان ضحية تنديد أو تهديد ، فاستطاعوا أن يجبروه على الدخول فى تلك العصابة ، كما استطعت أنت أن تجبر هاربن على القيام بدور مزدوج ؟ ...

ـ هذا ممكن ..

ـ وماذا لو أنهم قتلوه خوفا من أن يعترف عليهم ويذكر لكم الحقيقة أن قبضتم عليه ؟

ـ وهذا أيضا ليس مستحيلا .

ـ على كل حال يسرنى جدا انهم أقدموا على قتله ، فما كنت أحب لهارى أن يضطر إلى الاعتراف على زملائه واخوانه .

ورأيته بعد ذلك يضرب ركبته بحركة معبرة ويقول :

ـ لقد انتهينا من هذا الأمر على كل حال ، وحان لى أن أعود إلى انجلترا بأقرب فرصة ، فلم يعد لى هنا مقام .

ـ استحسن أن نبقى هنا برهة أخرى ، فإن البوليس النمساوى أمر بالقبض عليك أن حاولت مغادرة فيينا فى هذه الآونة ويجب ألا تنسى أن كولر أبلغ البوليس النمساوى بما قلته كما أبلغنى .

ـ فهمت ، إذن لابد من أن أبقى .

ـ وعندما نضع يدنا على الرجل الثالث ، ستظهر براءتك تماما .

ـ انى أتمنى أن أضع يدى على هذا اللئيم ، فسأجد فى هذا أقصى العزاء عما منيت به فى هذه المدينة .



غادرنى مارتنز بعد أن تلقى الصدمة ، وذهب إلى البار فجعل يشرب الخمر بصورة منكرة ، واختار لغرضه هذا ، البار الشرقى ، وهو ناد من علب الليل ، صغير الحجم مشحون جوه بالدخان ، ويتوارى بابه خلف دكان للتحف فى مواجهة كنيسة القديس باسيلى .

وتزين جدرانه الصور العارية المألوفة ، كما تزين موائده تلك الوجوه

الأمريكية من أنصاف السكارى ، أما الخمر فأصناف رديئة من النبيذ ، وأنواع لا وصف لها ولا طعم من الجن ، فهو بار شبيه بأى بار من الدرجة الثالثة فى أى عاصمة محتلة مهدمة ، من مخلفات الحرب العالمية الثانية .

وفى ساعة معينة قبيل الفجر دخلت الداورية الدولية إلى ذلك المكان كى تلقى على من بداخله نظرة حسب العادة الليلية ، وكان مارتنز قد شرب أكوابا مترعة بعد أكواب مترعة ، وكان من المحتمل أيضا أن يكون قد وضع يده على عنق امرأة ، لولا أن ساعات عمل جميع فتيات ذلك البار كانت قد انتهت وعدن إلى بيوتهن مع من وقع عليه النصيب من الزبائن الأمريكان .

ولم يبق فى البار من النساء إلا صحفية فرنسية ، بارعة الجمال ، ولكنها ذات نظرة ثاقبة ورأى حصيف ، لهذا آثرت السلامة ، فتجاهلت مارتنز ونامت على المائدة وهى جالسة مزدرية وجوده .

ونهض مارتنز فغادر البار ليختار مكانا آخر أكثر حيوية ، فذهب إلى مكسيم ، فوجد فيه حفنة من الأفراد يرقصون بصورة مملة ، وذهب إلى بار فكتور ، فوجد جهاز التدفئة معطوبا ، والزبائن محتفظين بمعاطفهم اتقاء للبرد وهم يشربون الكوكتيل الأمريكى ، فشرب كأسين أيضا تحية للبار ، وعندئذ بدأت تتراءى لعينيه بقع حمراء وخضراء ، وثقل على صدره إحساسه بالوحدة والعذاب ، وطاف خاطره بفتاة دبلن ، وبفتاة أمستردام ، وشعر براحة لتلك الذكرى ، فإن الخمر والحب الجسدى أشياء صريحة على الأقل لا خداع فيها ولا تزوير ، وليست مخيبة للآمال محطمة للقلب مثل الصداقة المغشوشة .

إن الرجل لا يمكن أن يطلب من بائعة هوى أن تكون مخلصة وفية ، ولا يمكن أن يطلب من الخمر أن تكون أداة للرشد ، ولكن الإنسان يختار الأصدقاء ويثق بهم لأغراض أخرى غير الخمر وغير الفجور والمجون .

وكانت حركة الترام قد توقفت ، فمشى على قدميه وقد عقد العزم على الذهاب إلى بيت عشيقة هارى ، كان يريد أن يعانقها ، هكذا بصراحة وبغير مقدمات ، وأن ينالها من غير مطارحة غرام أو خيال أو أوهام عاطفية !

كان فى حالة نفسية من حالات العنف ، ولكن الطريق كان مغطى بالثلج

المتموج مثل سطح البحيرة ، فكان لهذا أثره فى مخيلته ، إذ اتجهت وجهة اخرى غير وجهة العنف ، اتجهت إلى الأسى والأسف ، وإلى الحب الأبدى والتسليم والتسامح والصفح !



ولابد من أن الساعة قد بلغت الثالثة صباحا عندما أخذ مارتنز يتسلق السلم متجها إلى حجرة آنا شميت ..

وكان سكره قد تبدد تقريبا كلية ، ولم تعد لديه بقية من أفكاره السابقة عن اغتصابها عنوة ، بل لم تكن فى رأسه إلا فكرة واحدة ، هى أن يفضى إلى آنا شميت بالحقيقة السافرة بخصوص هارى لايم .

وفى الواقع كان يرجو من وراء هذا الافضاء أن يرفع عن كاهلها وكاهله ما لذكرى الميت من حرمة ، لعل ذلك أن يتيح له شيئا من النجاح لدى صديقة هارى القديمة ، والعجيب أن الرجل حينما يحب ، لا يخطر بباله ايضا ان المرأة التى أحبها قد فطنت من تلقاء نفسها إلى تلك الحقيقة ، فيخيل إليه انه لا يكون قد أشعرها بحبه بشكل واضح ، لا بلهجة صوته ، ولا بلمسة يده ، وإنما لابد له من التصريح باللفظ الواضح دون سواه ..

ولما فتحت له آنا الباب . وقد ادهشها أيما دهشة أن تراه ماثلا على عتبة حجرتها وقد تشعث شعره ، لم يستطع أن يدرك ما دار براسها ، ولهذا قال ببلاهة ومن غير مقدمات وهو واقف فى مكانه ذاك :

- يا آنا ، لقد عرفت كل شىء !

ولم تفهم آنا ماذا يعنى ، فقالت له :

- أدخل ، ولا تصرخ هكذا ، إذ ليس بك من حاجة إلى إيقاظ سكان البيت جميعا فى هذه الساعة .

وكانت آنا مرتدية الروب ، وقد تحولت اريكتها فى الليل إلى سرير ، بيد أن هذا السرير كان عليه من علائم الاضطراب ما يدل بوضوح على أن صاحبه لم يستطع أن يعثر على النوم رغم تقلبه فيه .

- من الأفضل أن تروى لى كل شىء بترتيبه من البداية .

ووقف وسط الحجرة حائرا يفتش عن كلمات يقولها ، فسألته :

ـ ماذا جرى ؟

ولما لم يجب هزت كتفيها وقالت :

ـ لقد اعتقدت أنك ستظل بعيدا عنى فترة من الزمن على الأقل ، فشعر بالحرج ، وارتسم ذلك فى عينيه ، فعادت تسأله :

ـ هل البوليس يبحث عنك ؟

ـ كلا ..

ـ إذن لماذا جئت فى هذه الساعة ؟ إنك لم تقتل ذلك الرجل طبعا .

ـ طبعا لم أقتله .

فقطبت حاجبيها وسألته بحدة :

ـ هل أنت سكران ؟

ـ بعض الشىء !

وكان يجيبها بصوت أجش وقد ظهر عليه الضيق واضحا ، لأن الزيارة لم تسر فى الاتجاه الذى قدره .

ولم يلبث أن قال فجأة :

أغفرى لى هذا السكر .

ـ ولماذا ؟ أنى شخصيا لم أكن لأتورع عن الشراب لو أنى وجدت إليه سبيلا ، ما أشد حاجتى إليه .

ـ لقد قابلت رجال البوليس الانجليزى .

ـ حقا ؟ وماذا قالوا لك ؟ أيشكون فى أمرك ؟

ـ إنهم يجمعون على أننى غير مذنب .

ـ هذه أنباء سارة .

- نعم ولكنهم هم الذين أطلعونى على الأنباء السيئة .

- اى انباء تعنى ؟

- هم قالوا لى الحقيقة عن هارى ، حقيقة سيئة جدا .

وسكت قليلا ، ولما وجدها لا تتكلم ، قال :

- كان هارى يشتغل بالتهريب ، وبالتهريب القذر .

وبلهجة يأس مرة استطرد منفجرا :

- كان هارى لا يساوى شيئا ، لقد خدعنا نحن الاثنين ، أنت وأنا ، خدعنا بسفالة لا يتصورها عقل .

فقالت له آنا بهدوء :

- من الأفضل أن تروى لى كل شىء بترتيبه من البداية .

وجلست آنا فوق السرير ، وظل هو واقفا ، معتمدا على حرف المائدة حيث كانت أوراق روايتها متناثرة ، وأخذ يقص عليها كل شىء .

واعتقد أنه روى لها القصة بطريقة مضطربة ، وأنه ألح على الخصوص فى بيان الأمور التى انطبعت فى ذهنه وأثرت فى وجدانه بصورة واضحة ، مثل الأطفال الذين ماتوا والأطفال الذين أصابهم الجنون .

ولما انتهى من سرد ما عنده ، لزم الأثنان الصمت ، ثم سألته :

- هل هذا كل شىء ؟

- نعم ..

- الم تكن قد شربت شيئا عندما قالوا لك ذلك كله ؟

- كلا ..

- وهل أثبتوا لك كل ذلك حقا ؟

فأجابها بصوت حزين :

- نعم ، فهذه هى حقيقة هارى .

ـ الآن أشعر بالسرور لأنه مات ، فما كنت لأحب أن أراه يتعفن حيا فى سجن أعواما طويلة .

فصاح فى يأس :

ـ ولكن أتستطيعين أن تتصورى ، كيف أن هارى الذى تعرفينه وأعرفه ، وتحبينه وأحبه ، استطاع أن يشترك فى هذه العمليات الدنسة التى يتعفف عنها الحيوان .

ولما سكتت ، استطرد قائلا :

ـ يخيل إلى أن هارى لم يوجد بتاتا فى هذه الدنيا ، وأنه كان حلما توهمناه ، ولكن أيمكن لو هم أن يظل تلك السنوات الطوال يسخر من مغفلين كبيرين هما انت وأنا ؟

فقالت له باستسلام :

ـ ربما ... ثم ماذا يفيد كل هذا الكلام ؟ اجلس ، ولا تعذب نفسك .

وكان وهو متجه إلى بيتها يتصور نفسه سيقوم بدور الترفيه عنها وتعزيتها فى تلك الصدمة ، ولم يتوقع مطلقا أن يجىء الأمر على عكس ما تصوره ، فتقوم هى بتعزيته ، والتسرية عنه .

وجلس ، وسمعها بعد ذلك تقول له فى هدوئها :

ـ لو كان على قيد الحياة ، لعله كان مستطيعا أن يفسر لنا موقفه وتصرفاته ، أما وقد مات ، فمن واجبنا أن نتذكره على الصورة التى عرفناه بها .

فأطرق ولم يجب ، فاستطردت :

ـ هناك قطعا أشياء كثيرة جدا نجهلها عن أى شخص حتى ولو كنا نحبه ، أشياء كثيرة طيبة وسيئة ، فيجب علينا أن نتسامح .

ـ ولكن هؤلاء الأطفال الذين قتلهم ...

فصاحت فى غضب :

ـ بحق السماء دع عنك هذه الطريقة فى تخيل الناس على صورتك أنت ! لقد كان هارى شخصا واقعيا له حقيقته المستقلة ، لم يكن مجرد بطلك الخيالى ، ولم يكن عشيقى وحسب ، إنه كان هارى قبل كل شىء ، وكان مهربا ، واقترف أعمالا شريرة سافلة ، ثم ماذا ؟ لقد كان على كل حال الرجل الذى عرفناه .

وإذا به يقول لها فجأة :

ـ اتركى جانبا مواعظك ، ألا تدركين أنى أحبك ؟

فحملقت فيه مذهولة وقالت :

ـ أنت ؟

فقال بإصرار :

ـ نعم أنا ، ولست أنا الشخص الذى يقتل الناس بأدوية مزيفة ، ولست أنا الرجل المنافق الذى يوهم الناس أنه أعظم الأبطال والأبرار .. فأنا لست إلا كاتبا رديئا يفرط فى شرب الخمر ، وتصرعه أى فتاة يقابلها فى الشارع فيجرى ورائها من غير عقل ومن غير تعفف !

فقالت له فى عجب :

ـ ولكنى لا أعرف حتى ما هو لون عينيك ! ولا أعرف عنك أى شىء ، حتى لو أنك طلبتنى بالتليفون منذ لحظة واحدة وسألتنى هل أنت أسمر أو أشقر ، أو هل لك شارب أو أنت حليق الوجه ، لما عرفت بماذا يمكن أن أجيبك عن هذه الأسئلة !

فنظر إليها فى أسى وتوسل وقال :

ـ ألا يمكنك أن تفكرى فى أى شىء سواه هو ؟

فهزت رأسها وقالت بثبات :

ـ لا أستطيع .

فقال مارتنز :

ـ بمجرد أن تسوى قضية مقتل كوخ ويتضح لغزها ، سأغادر فيينا ،

فلم يعد يهمنى أن أعلم هل كورتز هو الذى قتل هارى ، أم أن الذى قتله هو الرجل الثالث ، فإنى أعتقد الآن أن الشخص الذى قتل هارى ، أيا كان هذا الشخص ، قد أقدم على تنفيذ نوع من القصاص العادل ، بل إننى لو كنت فى تلك الظروف نفسها ، ربما أقدمت على قتله بنفسى ، ومع هذا فأنت مازلت تحبينه ، تحبين مجرما نذلا قاتلا .

فأجابته بحزم ووضوح :

ـ كنت أحب الرجل فيه لا البطل كما قلت لك ، والرجل لا يختلف شأنه فى نظر المرأة العاشقة لأنها تكتشف عنه أشياء جديدة ، ومهما كانت هذه الأشياء سيئة ، فإنه يظل دائما نفس الرجل فى إحساسها .

ـ إنى أفزع حقا من طريقتك هذه فى الكلام ، وانا احس بصداع فظيع ، وها أنت تقولين اشياء أفظع من الصداع .

ـ أنا لم أطلب منك أن تحضر .

ـ بل أنك تبذلين كل ما فى وسعك لاثارتى ومضايقتى !

فانطلقت فجأة تقهقه ضاحكة ، وهو يحملق مستغربا ، وقالت :

ـ إنك مضحك حقا ، لقد أتيت هنا فى الساعة الثالثة صباحا ، وأنت الشخص الذى لا أعرفه تقريبا ، جئت لتقول لى أنك تحبنى ، ثم ها أنت بعد ذلك تغضب وتتصيد الشجار معى ، فماذا تريد أن أعمل ؟ وماذا تريد منى أن أقول لك فى هذه الظروف ؟

فقال لها بهيام أشبه بالبلاهة :

ـ لم أرك من قبل تضحكين أبدا ، اضحكى ثانية ، فإن هذا يطيب لى .

ـ إنك مضحك فعلا ، ولكن لا بما يكفى لنوبتين من الضحك !

فتناول كتفيها وهزها بلطف وقال :

ـ سألعب بملامح وجهى طول النهار ، سأقف على رأسى وأنظر إليك وأنت تقهقهين بين ساقى ! سأتعلم آلافا من النكت والنوادر عسى أن يكفى هذا لإضحاكك باستمرار .

وادهشه انها أبدت ملاحظة بعيدة كل البعد عن الموقف إذ قالت :

ـ ابتعد عن النافذة حتى لا يظهر خيالك منها ، فليس على زجاجها ستائر ، تجنب النافذة بأى شكل !

فهز كتفيه وقال :

ـ ولكن ليس فى الشارع فى هذه الساعة أحد كى يرانى .

بيد أنه نظر بحركة آلية ليتحقق من صدق رأيه ، لأنه شعر فى داخل نفسه أنه ليس متأكدا تماما مما قال ، فرأى ظلا طويلا يتحرك ، ثم أدرك انه فى الغالب ظل سحابة مرت أمام وجه القمر ثم ثبتت فى مكانها فتراجع عن النافذة مطمئنا وسألها من جديد :

ـ ألم تزالى تحبين هارى ؟

ـ بلى !

ـ وأنا أيضا .

وسكت قليلا ثم استطرد :

ـ بل ربما ، لا أدرى تماما .

ثم ترك كتفيها وتهاوت يداه فى جانبه وقال :

ـ يجب الآن أن أنصرف .



واسرع فى سيره ، فلم يجشم نفسه عناء النظر ليرى هل يتبعه أحد أم لا ، ولا ليتأكد هل الذى ظنه ظل السحابة ليس حقا سوى ظل .

ولكن عندما مر عند رأس الشارع ، التفت وراءه عفوا ، فلمح عند الناصية تماما شبح رجل قصير بدين وقد التصق بجدار حتى يختفى عن ناظريه ، فثبت مارتنز فى مكانه ونظر طويلا إلى ذلك الشخص الذى خيل إليه أن شكله مألوف عنده ، وقال لنفسه :

ـ ربما كان هذا الرجل أحد المخبرين الذين دأبوا على تسجيل حركاتى

فى الاربع والعشرين ساعة الماضية بكل دقة .

ولبث مارتنز هناك ينظر من مسافة عشرين خطوة إلى ذلك الشكل الصامت الثابت الذى كان يرقبه من الحارة المظلمة ، ولم يشك فى انه جاسوس من جواسيس البوليس ، إلا اذا كان جاسوسا لهؤلاء المجرمين الذين افسدوا ذمة هارى ثم انتهوا بقتله .

ولمعت فى ذهنه بارقة : أليس من المحتمل أن يكون هذا الرجل هو الرجل الثالث ؟ فإن وجه الرجل ليس هو المألوف عنده ، بما أن وجهه الآن غير ظاهر ، وكذلك لا يمكن أن يكون مصدر إحساسه بالألفة له وحركته ، لأن الرجل كان ثابتا لا يتحرك ، بدرجة أن مارتنز بدأ يشك ويتساءل هل هو واهم ، ولذلك صاح بصوت مرتفع :

ـ من أنت وماذا تريد ؟

ولم يتلق ردا ، فصاح فى ثورة السكارى :

ـ الا تريد أن ترد ؟

وكان الرد هو ارتفاع ستارة من فوق نافذة بيت مجاور ، استيقظ ساكنه على الضجة ، وأضاء النور فاخترق الشعاع الحارة الضيقة وسقط مباشرة على وجه الرجل ..

على وجه هارى لايم !

الفصل الثامن

الشبـــــح

قال لى مارتنز :

ـ هل تعتقد بوجود الأشباح ؟

ـ وأنت ؟

ـ أما الآن فإنى أعتقد فى وجودها ...

فقلت له :

ـ أنى شخصيا أعتقد أن الرجال حينما يستولى عليهم السكر يرون أشياء كثيرة ، قد تكون فيرانا ، وأحيانا تكون شرا من هذا .

ولم يكن قد حضر على الفور ليروى لى قصته ، بل لم يدفعه للحضور إلى مكتبى على تلك الصورة إلا الخطر الذى كان يتهدد آنا شميت ، مثل الغريق الذى يقذفه البحر إلى الشاطىء .

وكان مارتنز طويل اللحية ، مضطرب الثياب ، تراوده فكرة مغامرة لم يفقه عنها شيئا ..

واخذ يقول لى :

ـ لو لم تقع عينى على ذلك الوجه لما ساورنى القلق ...

ـ أواثق أنت انك لم تتوهم ؟

ـ لا انكر أن فكرت كثيرا فى هارى ، ولكن هناك فرقا كبيرا جدا بين التفكير فيه وبين أن اخلط بينه وبين شخص مجهول ! لقد انطفأ النور

بعدها مباشرة ، فلم ألمح الرجل إلا لحظة واحدة ؛ هذا إذا سلمنا أنه رجلا وليس شبحا ! ثم رأيته يتحرك مفارقا الشارع ، ولم يكن هناك منحنى إلى مسافة طويلة ، ولكن المفاجأة كانت من الشدة بحيث تركته يسبقنى بمقدار ثلاثين خطوة ، ورأيته يتجه نحو كشك من أكشاك الصحف ويختفى عن نظرى برهة ، فأخذت أجرى ، وكانت تلزمنى عشر ثوان لكى أصل إلى الكشك ، ولاشك فى أنه سمعنى أجرى بيد أن الغريب حقا أنه لم يظهر بعد ذلك لعينى ، فدرت حول الكشك ، ولم أجد أحدا ، كان الشارع خاليا ، وكان من المستحيل أن يصل إلى مدخل أى بيت من غير أن يلتقى بى .

- ومعنى ذلك ؟

- لقد تبخر الرجل !

- وهى صفة طبيعية للشبح .. أو الوهم !

- ولكنى لم أكن سكرانا إلى تلك الدرجة ...

- وماذا فعلت بعد ذلك ؟

فقال كالمعتذر أو المحتج :

- كانت أعصابى مضطربة جدا فذهبت وشربت قليلا ..

فقلت أعاتبه :

- وهل أجدى ذلك فى إعادة الشبح إلى الظهور ؟

فقال باندفاعه المعهود :

- كلا ... ولكنه أجدى فى إعادتى إلى بيت أنا شميت !



ولا أظن أنه كان يتجاسر على الحضور ليروى لى تلك القصة الظاهرة السخيفة ، لو لم يقع اعتداء أو محاولة اعتداء على أنا شميت .

وعندما روى لى القصة ، كانت فكرتى الخاصة فى تعليلها أنه كان هناك من يترقبه ، بيد أن اضطراب أعصابه ، أو سكره هو الذى ألصق بوجه ذلك الشخص المجهول ملامح هارى لايم .

وقد سجل هذا المراقب المجهول زيارة مارتنز لآنا شميت ، وأخبر بذلك أحد أعضاء العصابة السوداء ، عصابة البنسلين ، بالتليفون .

وكانت الحوادث فى تلك الليلة تجرى بسرعة غريبة ، فإن كورتز كما نذكر كان يسكن فى المنطقة الروسية ، فى البقعة رقم ٢ بالضبط فى شارع ماريا هلفه وهو شارع خال مقفر عريض ، يؤدى إلى ميدان براتر ...

ولاشك فى أن رجلا من طراز كورتز قد حصل لنفسه على حماة من الأقوياء أصحاب النفوذ ، وكان الاتفاق البوليسى المعقود منذ البداية بين الحلفاء ، يخول للبوليس الحربى التابع لدولة كل منطقة سلطات مستقلة إلا فى حالة حصول ذلك البوليس على إذن خاص بدخول المناطق الأخرى .

فلم يكن أمامى إلا أن أتصل تليفونيا بمن يشغل مثل منصبى فى المنطقة الفرنسية أو الأمريكية لكى يتسنى لى إرسال رجالى لإلقاء القبض على أحد أو لمتابعة تحقيق ، أما المنطقة الروسية فكانت تمر أحيانا ثمان وأربعون ساعة قبل أن أتمكن من الحصول على التصريح ، ولحسن الحظ كان من النادر أن تعرض لنا حالات يكون من الضرورى فيها أن نعمل بسرعة أكبر من هذه .

والواقع أنه حتى فى انجلترا قد لا يكون من الممكن دائما أن نحصل على أمر بالتفتيش أو ترخيص من الرؤساء بالتحفظ عن أحد المشتبه فيهم ، قبل ثمان وأربعين ساعة .

ومعنى هذا أننى ان كنت أريد وضع يدى على كورتز بحجة الاشتباه ، فمن المستحسن أن أنتظر مروره صدفة فى منطقتنا البريطانية ، لأن ذلك المرور يحدث كل يوم تقريبا للأشخاص العاديين فلا حاجة إلى طلب رسمى من القيادة الروسية للبحث عنه -أو تفتيشه .



ذهب مارتنز إلى آنا شميت فى الساعة الرابعة صباحا وهو فى حالة سكر تام ، يشرح لها على قدر ما سمحت له حالته كيف رأى شبح هارى ، وإذا بالبواب يقابله مذعورا ويخبره أن الداورية الدولية حضرت واعتقلتها ...

وهاكم ماحدث :

تذكرون أن الروس كانوا قد تولوا السلطة لمدة شهر فيما يختص بوسط مدينة فيينا أو قلب فيينا كما يسمونه ، وتلقى الروس معلومات تفيد بأن أنا شميت رعية روسية ولكنها تحمل أوراقا مزورة ، فانتهز الروس فرصة الداورية الليلية واتجهوا بسيارتهم إلى الشارع الذى تسكنه أنا شميت ...

وأمام العمارة التى تقطنها أنا شميت أخذ العضو الأمريكى فى الداورية يرتاب فى الموضوع وسأل الروس باللغة الألمانية ماهى المسألة ؟

أما العضو الفرنسى فأسند ظهره إلى مسند السيارة وأشعل سيجارة فرنسية ذات رائحة لعينة ، فإن فرنسا لم تكن طرفا فى هذه القضية ، وكل مالا يزج بفرنسا فى الميدان لا أهمية له عنده ...

وأفلح الروس في التلفظ ببضع كلمات المانية وهو يلوح بأوراق فى يده ، ولكن المانيته كانت من صنف ردىء جدا ، وكل ما فهموه منه أن البوليس الروسى يفتش عن لاجىء روسى يسكن ذلك البيت ، والأوراق التى يحملها ليست قانونية .

وصعدت المجموعة إلى حجرة أنا ، فوجدوها فى سريرها ، ولكنى لا اظن أنها قد نامت بعد زيارة مارتنز .

والحقيقة أن فى هذه المواقف جانبا مضحكا جدا حينما لا تكون طرفا فيها أو يهمك أمرها مباشرة ، أما فى جو الفزع الأوربى العام ، تحت تهديد التفتيشات الليلية ومعسكرات الاعتقال ، فإن كل شخص له والد ينتمى إلى الفريق الخاسر فى الحرب ، يشعر دائما أن الذعر يغطى على كل جوانب الفكاهة .

وتصوروا المنظر : فالروسى يرفض أن يغادر الحجرة ، والأمريكى لا يريد أن يترك فتاة كهذه من غير حماية ، أما الفرنسى فأقسم أنه لابد قد وجد المنظر مضحكا جدا !

كان الروسى يشغل مركز القيادة ، وكان يرقب الفتاة العارية من غير أن يبدو عليه اى اهتمام جنسى ، والأمريكى غلبته شهامته فأدار لها ظهره ، والفرنسى كان يدخن سيجارته وهو ينظر فى تلذذ وعدم مبالاة إلى شكل أنا

وهى تبدل ثيابها ، وقد انعكست صورتها فى مرآة الدولاب ، وأما الانجليزى فوقف وحده فى الدهليز يتساءل ماذا يجب أن يفعل .

ويظهر أن وقوف الجندى الانجليزى فى الدهليز بعيدا عن ارتباكات المنظر ، أتاح له أن يفكر بهدوء ، فقاده تفكيره إلى جهاز التليفون فى الشقة المجاورة ، ومن هناك اتصل مباشرة بمسكنى ، وأيقظنى من عميق نومى .

وهذا هو السبب فى أننى عندما طلبنى مارتنز بعد ذلك بساعة ، كنت أعلم سلفا سبب اضطرابه ، وقد ولد ذلك فى نفسى إيمانا لا مبرر له بأن وسائلى فى غاية الدقة والاعجاز ، ولكنه إيمان نفعنى جدا ، إذ أقلع بعدها عن التشكك فى كفاية رجال البوليس المحترفين .

ولما عاد البوليس الحربى الانجليزى إلى حجرة آنا ، وجد أن شجارا قد نشب بين الثلاثة الآخرين .

وكانت آنا شميت قد قالت للأمريكى أنها تملك أوراقا نمساوية ، وهو قول صحيح ، وأن هذه الأوراق قانونية تماما ، وهو قول مبالغ فيه جدا فى الواقع ، وبلغة ألمانية ركيكة قال الأمريكى للروسى أنه لا حق له فى القبض على مواطنة نمساوية ، وطلب من آنا شميت أوراقها ، فلما ابرزتها للأمريكى ، أخذها الروسى منها وقال وهو يشير بأصبعه إلى الفتاة .

- مجرية .. مجرية ..

ثم لوح بأوراقها فى الهواء صائحا :

- رديئة ... فاسدة ...

فصاح به الأمريكى قائلا :

- أعد هذه الأوراق إلى الآنسة ...

ولم يفهم الروسى بطبيعة الحال ما قاله الأمريكى بالانجليزية فوضع الأمريكى يده على قبضة مسدسه ، فقال الانجليزى :

- دع المسألة تمر .

- إن كانت هذه الأوراق غير قانونية فمن حقنا أن نطلع عليها .

- اسمع ما أقول ، دع المسألة تمر وسنطلع على هذه الأوراق فى المكتب المركزى للبوليس الدولى .

- ما أفظعكم أيها البريطانيون ! ليست لديكم الحماسة للمقاومة .

وكان الانجليزى ممن خدموا فى دنكرك ، بيد أنه كان يحسن الصمت .

ونزل الجميع فركبوا السيارة .. وكنت أعلم أنهم لابد من أن يمروا فى طريقهم أمام أحد مراكزنا الانجليزية ، فوضعت حاجزا فى الطريق واضطر السائق إلى التوقف ، وأخرجت رأسى من النافذة ، وقلت للروسى بلغته كى يفهمنى جيدا :

- ماذا تصنع هنا فى المنطقة البريطانية ؟

فغمغم يقول أنها الأوامر ، فقلت له :

- معك أمر ممن ؟ أريد أن أراه .

وتناولت منه الورقة ونظرت إلى الامضاء وقلت له :

- هذا أمر لك باحضار امرأة معينة ، مجرية الجنسية ، من مجرمات الحرب ، تعيش فى المنطقة البريطانية بأوراق مزورة .

فأرنى هذه الأوراق لأتأكد بنفسى .

فانطلق فى تفسير طويل.. وأعطانى الأوراق ، فقلت له :

- إن هذه الأوراق تبدو لى سليمة تماما لأول وهلة ، ولكنى سأحيلها على الفحص ، وأبعث بالنتيجة فى تقرير إلى قائدك ، وفى وسعه طبعا أن يطلب منا تسليم هذه المرأة بعد ذلك ، فكل ما نطلبه هو إثبات واضح لنشاطها الاجرامى .

ونظرت إلى آنا شميت وقلت لها :

- أنزلى من السيارة .

ووضعت علبة سجائر فى يد الروسى وأنا أقول له :

ـ دهن هذه فى صحتى .

وبإشارة من يدى حييت الجنود الآخرين ، ثم تنهدت بارتياح لأن الحادثة انتهت على تلك الصورة .



وفى أثناء ما كان مارتنز يروى لى كيف رجع الى بيت آنا شميت ليجدها قد ذهبت مع الداورية ، كنت أفكر بعمق ، ولم استرح إلى قصة ذلك الشبح ، ولا إلى تفسيرى لها بأن الرجل الذى كان يحمل وجه هارى لايم ربما لم يكن إلا وهما من أوهام السكارى ...

وأخرجت خريطتين من خرائط فينا ورحت أقارن الواحدة منهما بالأخرى ، والزمت مارتنز الصمت بأن أعطيته كوبا من الويسكى . ثم طلبت مخبرى بالتليفون وسألته هل تمكن من العثور على أثر لهاربن ، فأجاب بالنفى .

وكانت المعلومات التى عندى تدل على أن هاربن سافر فى الأسبوع الماضى كى يزور أسرته التى تقطن المنطقة المقابلة ، وليس من طبعى أن أقسو على من يعملون معى . لأنى لست من طراز الرؤساء الذين يحبون أن يعملوا كل شىء بأنفسهم ، وأنى واثق أننى ما كانت لأترك هاربن يفلت ، ولكن من الممكن ايضا لو كنت فى مكان مرؤوسى أن ارتكب أخطاء لا يقع هو فيها ، ولهذا وجدتنى أقول له :

ـ وهو كذلك ، أستمر فى بحوثك وحاول أن تعثر عليه .

ـ إنى آسف جدا يا سيدى لافلاته منى .

فقلت كى أهون عليه الأمر :

ـ لا تفكر كثيرا فى ذلك ، فهذه الأشياء كثيرا ما تحدث لنا جميعا .

وكان صوته متحمسا ، وذلك أمر طبيعى لدى الشباب ، وليتهم يستطيعون الاحتفاظ بحماستهم كى يقوموا بالأعمال الروتينية ، فكم من فرص تضيع لأن الأعمال تؤدى بصورة آلية .

وقبل أن أرد السماعة إلى موضعها سمعته يقول :

ـ اتعلم يا سيدى أننى لا أجد مناصا من التفكير فى أننا تحاشينا بسهولة غير معقولة إمكان وقوع جريمة قتل ، فهناك نقطة أو نقطتان ...

وقاطعته قائلا :

ـ ارفع بها تقريرا كتابيا يا كارتر .

ولكن كارتر كان حديث السن جدا ، فلم تثبط عزيمته كلماتى ، وقال :

ـ نعم يا سيدى ، فإنى أعتقد يا سيدى ، بعد إذنك فى الكلام ، إننا يجب أن نأمر باستخراج الجثة .

ـ أى جثة ؟

ـ جثة لايم يا سيدى ، فليس لدينا دليل قاطع على أن لايم مات فعلا فى اللحظة المحددة التى قررها الآخرون .

فقلت له بكل ارتياح :

ـ إنى على رأيك يا كارتر .

ـ ماذا تأمر يا سيدى ؟

ـ اتصل بالسلطات المختصة !

لقد كان مارتنز على حق !

وكم كنت أنا فى هذه القضية مغفلا كبيرا !

ولكن أرجو منكم أن تتذكروا أن عمل البوليس فى مدينة محتلة لا يشبه فى شىء عمل البوليس فى مدينة عادية بانجلترا .

إن عمل البوليس فى المدينة المحتلة يضعنى أمام أمور كثيرة جديدة تماما ، فوسائل الزملاء الأجانب والقيمة التى يمكن أن نعلقها على شهادات الشهود وطريقة إدارة التحقيق ، كل هذا جديد .

واعتقد انى كنت قد وصلت إلى تلك المرحلة العقلية التى يعتمد فيها الانسان اكثر مما يجب على حكمه الشخصى ، وكانت وفاة لايم قد أزاحت

عن كاهلى عبئا كبيرا ، لتجنب فضيحة ضخمة لطبيب انجليزى يشغل منصبا ساميا ، ولهذا رحبت بالرواية التى أبلغت لى عن الحادث ..



ونظرت بعد ذلك إلى مارتنز وقلت له :

ـ هل نظرت فى داخل كشك الصحف ؟

ـ كان مغلقا .

ـ هل كان مغلقا بالقفل والمفتاح ؟

فطوح يديه فى الهواء وقال لى :

ـ أوه ! إنه لم يكن كشكا لبيع الصحف بالمعنى المفهوم .

فسألته فى شىء من التعجب :

ـ أى نوع من الأكشاك إذن ؟

ـ إنه كشك من الحديد ، مما يراه الانسان فى جميع الشوارع ، تغطى جدرانه من كل ناحية إعلانات وملصقات .

فقلت له فى اهتمام :

ـ يهمنى أن تدلنى على ذلك الموضع .

فقال لى فى لهفة :

ـ ولكن هل أنا شميت فى أمان ؟

فطمأنته قائلا :

ـ لقد أعادها رجالى إلى مسكنها .

ـ ولكن الروس يمكن أن يعيدوا المحاولة .

ـ إن رجالى يراقبون المكان ، فلن يعاودوا المحاولة فى الوقت الحاضر ، وعليك أن تطمئن إلى اهتمامى التام بسلامتها .

ـر عليه الارتياح وقال :

ـ هيا بنا لأدلك على ذلك الكشك .

□

ولما كنت لا أريد، أن ألفت الأنظار فى الحى كله بمرور سيارة البوليس ، فقد ركبنا الترام ، واضطررنا إلى تبديل جملة مركبات للترام من خطوط مختلفة ، إلى أن دخلنا المنطقة سيرا على الأقدام .

وكنت لا أرتدى ملابسى الرسمية ، ثم أنى لم أكن أعتقد أن رجال العصابة وقد فشلت محاولتهم فى الاعتداء على أنا شميت بالوشاية بها إلى الروس ، قد لا يفكرون فى المخاطرة بتعقب آثارنا .

وقال مارتنز الذى دخل بى فى شارع جانبى :

ـ هذا هو المنحنى .

ووقفنا أمام الكشك ، وعندئذ قال :

ـ لقد اختفى وراءه ثم تبخر كمن بلعته الأرض .

فقلت له بلهجة ذات مغزى :

ـ وهذا ماحدث فعلا .

فحملق فى وجهى وقال :

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

والواقع أن أى عابر سبيل غير عليم بالحقيقة لم يكن ليفطن إلى وجود باب لذلك الكشك ، ثم أن الوقت كان ليلا عندما اختفى الرجل .

وجذبت الباب إلى ناحيتى ثم اشرت إلى مارتنز كى يرى السلم الحلزونى الصغير الذى كان يغوص فى أعماق الأرض . فصاح :

ـ يا إلهى ! إذن أنا لم أكن حالما ؟

ـ يبدو ه

- ولكن ما هذا بالضبط ؟

- إنه الفتحة المؤدية إلى تجمعات المجارى .

- وهل يستطيع أى شخص أن يهبط إلى هناك ؟

- أى شخص

فظهرت البغتة على وجه مارتنز وقال لى :

- ولكن إلى أين يمكن للمرء هناك أن يسير ؟

- إلى حيث يشاء له هواه .

- أعنى إلى أين تمتد هذه المجارى ؟

- إنها تخترق كل فيينا ، وكان الناس أثناء الغارات الجوية يختفون فى داخلها ، بل ان بعض الأسرى قد اختفوا هناك وعاشوا سنتين ، فهذا المخبأ يصلح للهاربين ، ويصلح أيضا للصوص .

- ولكن كيف يعرفون طريقهم ؟

- أن من يعرف جغرافية فيينا جيدا يمكنه أن يخرج على وجه التقريب فى أى موضع يشاء من أى فتحة أخرى للمجارى أو أى كشك مماثل لهذا الكشك ، ولهذا اضطر النمساويون إلى استخدام بوليس خاص لمراقبة هذه المجارى ..

وتركته محملقا وأغلقت باب الكشك ، ثم قلت :

- بهذه الطريقة اختفى صديقك هارى لايم .

فسألنى وقد رفع حاجبيه فى دهشة :

- أتعتقد حقا أنه كان هارى بنفسه ؟

- إن كل الدلائل تحملنا على ذلك الاعتقاد .

- إذن فمن هو الشخص الذى دفنوه أمامى ؟

فهززت كتفى وقلت له :

- لا أدرى ...

- ولكن يجب أن نتأكد ...

- سنتأكد عن قريب .. لأننا سوف نستخرج الجثة !

- لا أكاد أفهم شيئا .

- عندى فكرة غامضة يا مارتنز .

- ما هى ؟

- يخيل إلى أن كوخ ليس هو الشخص الوحيد الذى أزعج طمأنينة العصابة واضطروا أن يقتلوه .

- أتعنى أنهم قتلوا عدوا وزعموا أنه هارى لايم ؟

- هذا ما أعنيه ...

- ولكن الآن ماذا تصنع ؟

فأشعلت سيجارة وقلت :

- لا أدرى ، ولكن يمكنك أن تتأكد تماما أنه مختف فى هذه اللحظة فى منطقة أخرى ، وسوف لا نصل أيضا إلى كورتنز !

- وكيف ؟

- لأن واسطتنا إليه هو هاربن ، وهو الشاهد ضده ، ولاشك عندى الآن أن هاربن قد احترق !

- احترق ؟

- نعم ... وبدون ذلك ما كان أفراد العصابة ليجسروا على اخراج تمثيلية الوفاة والدفن .

فرفع مارتنز حاجبيه وقال :

- أليس من العجيب أن كوخ لم يستطع أن يعرف وهو مطل من نافذته وجه ذلك الميت ؟

فقلت له :

ـ إن النافذة مرتفعة جدا ، ويخيل إلى أيضا ان وجه الضحية كان قد ألحق به التشويه التام حتى لا يعرفه أحد قبل إخراج الجثة من السيارة .

وصمت مارتنز يفكر طويلا ثم قال :

ـ كم كنت أود أن أتحدث إليه قليلا .

ـ لماذا ؟

ـ إن هناك أشياء كثيرة جدا لا أستطيع أن افسرها إلى الآن .

ـ إنك بلاشك الشخص الوحيد الذى فى إمكانه أن يكلمه ولكن هذه مجازفة كبيرة لأنك أصبحت تعرف حقائق كثيرة جدا .

ـ المصيبة أننى لا أستطيع أن أصدق إلى الآن ما تقول ... فإنى لم أتبين وجهه إلا لمحة خاطفة ، والآن ما العمل ؟

ـ إنه لن يغادر منطقته فى الوقت الحاضر ، والشخص الوحيد الذى قد يستطيع إقناعه بالحضور إلى هذه الجهة هو أنت ... أو هى ... أن أعتقد أنكما لم تزالا صديقين له ، ويجب أن تبدأ أنت المحاولة ، وأن كنت لا أعرف الوسيلة الناجحة لذلك .

ـ أستطيع أن أذهب إلى زيارة كورتنز ، فعندى عنوانه .

ـ ولكن تذكر أنك متى صرت فى المنطقة الروسية ، ففى استطاعة لايم بسهولة أن يمنعك من مغادرتها ولا يكون فى وسعى أن أحميك هناك .

ـ ولكنى مصر على استجلاء هذه المسألة ، وفى الوقت نفسه أرفض أن أمثل يهوذا المخادع المنافق ، سأكلمه ولكن بكل صراحة .

الفصل التاسع

الطفل والشبح

كان الوقت مبكرا جدا عندما درج إلى الطريق المثلوج طفل فى الخامسة يرتدى بيجامة حريرية وردية اللون ، ومن فوقها روب دى شامبر من الصوف القرمزى الفاخر ، وفى قدميه الصغيرتين خف من وبر الجمال ، وقد تشعث شعره الذهبى وارتسم الرعب على محياه الجميل الشاحب .

كان كل شىء فى هذا الطفل الصغير يدل على الثراء ، وهو يدرج بسحنته المكفهرة كمن يسير فى نومه ، أو كمن أخطأ طريقه إلى الحمام المجاور لحجرة نومه ، كان ينظر إلى واجهات البيوت ومصابيح الشوارع المقفرة فى شرود غريب حقا .

وأغرب من هذا أنه خرج من البيت رقم ٤٨ ، لا من الباب الأمامى ، باب السادة ، بل من الباب الخلفى باب الخدم ، ولم يلبث أن وجد نفسه بعد قليل فى شارع متعرج تكثر فيه حوانيت شعبية لقلى السمك والبطاطس وبيع السجق للمبكرين من العمال .

وكان حريا بالطفل أن يسير فى هذا الشارع القذر إلى نهايته لولا أنه لمح امرأة عجوز مشعثة الشعر تخرج من باب أحد البارات وهى تترنح ، فما أن بصر بها على طوار الشارع حتى قهقه قهقهة عصبية انقلبت إلى بكاء ، وأسرع يدور على عقبيه فيعبر الشارع .

ولولا هذا البكاء العصبى لكان من الممكن أن يستمر فى تجواله من غير عائق ، لأنه ليس من المستغرب فى مثل ذلك الحى الشعبى أن يتجول الأطفال فى الشوارع فى أى ساعة وفى أى ثياب ، حتى لفت بكاؤه

الأنظار ، فوجد أحد الخدم أن منظره يدل على بيئته الراقية ، فاندفع نحوه ليسأله ماذا يبكيه ؟ وقبض على يده بلطف .

ـ ماذا يبكيك أيها الشاب الصغير ؟

فحاول الطفل أن يخلص يده من قبضة خادم البار وهو يصرخ :

ـ دعنى دعنى ! إنه الشبح !

وسرعان ما جذب يده بعنف وانطلق يجرى ، فجرى خادم البار خلفه ، وسرعان ما تجمعت شرزمة من الأطفال الحفاة تجرى خلفه صائحة مهللة إلى أن تمكنوا من إلقاء القبض عليه .

وكأنما انشقت الأرض عن شرطى ، فأفزع منظر الشرطى الطفل الارستقراطى ، وظل يصرخ مكررا كلمة الشبح ، إلى أن تصادف مرور ضابطة فى البوليس الانجليزى لأن هذه المنطقة تخضع إلى النفوذ البريطانى فى فيينا ، فأخرجت قطعة من الشيكولاته وحاولت أن تغرى بها الفتى الصغير على الهدوء .

وبكثير من الاحتيال نجحت الضابطة والشرطى فى أخذ الطفل إلى قيادة بوليسنا ، لأن ألفاظ الشبح ، والموت ، أثارت ارتيابا ، كما أن عجز الطفل تحت تأثير حالته العصبية الشديدة عن التعريف عن شخصيته وعنوانه زاد المسألة تعقيدا ، وكان ينبغى العناية بالأمر لأن الفتى يبدو من أصل انجليزى .

وكان أحد المساعدين موجودا عند وصول الطفل .. وهو ضابط متزوج وله أطفال فى انجلترا ، فكان باستطاعته أن يفهم نفسية الأطفال ويسوسهم ، وسرعان ما أرسل أحد الجنود فاشترى زجاجة لبن ، وقال للصغير :

ـ لاشك فى أن فى بيتكم تليفونا ؟

فحملق الصغير بعينين خائفتين وظهر فيهما أن الضابط أصاب الحقيقة ، وكان بطبيعة الحال استنتاجا سهلا ، فمثل هذا المستوى فى الثياب ، ولطفل انجليزى ، لابد من أن يدل فى فيينا على ثراء فاحش ، مع

أن الطفل لم يعثر عليه إلا فى شارع شعبى .

واستطرد الضابط الذكى :

ـ سنتصل بهم تليفونيا لنقول لهم أنك هنا سالم ، وسوف يرسلون أحدا لأخذك بسرعة إلى البيت .

فصرخ الطفل من جديد ، ورفع يديه أمام وجهه كمن يدفع خطرا مفزعا ، ثم صاح :

ـ البيت ؟ لا أريد !

وتذكر الضابط عندئذ أنه لم يصل إلى تبليغ عن فقد طفل فكيف حدث أن أسرة فى هذا المستوى من الثراء تفقد طفلا بهذه الصورة ولا تبلغ على الفور مراكز البوليس للبحث عنه ؟

واتصل الضابط تليفونيا بمراكز البوليس بجميع مناطق فيينا ، فلم يجد عند أى مركز فيها أى إشارة إلى فقدان طفل ، فعاد إلى الصغير يحاول أن يستخرج منه المعلومات بالحيلة .

وفى هذه اللحظة دخلت أنا ، وقد شغلنى موضوع الشبح الذى انتهى بنا إلى كشك مجمع المجارى ، وسمعت الضابط يحدثنى وأنا شارد عن طفل انجليزى يصرخ من شبح ، ويتحدث عن موت وجريمة قتل ، فنبهتنى هذه الكلمات وتعلقت بها كما يتعلق الغريق بالقش ، فمن الواضح أن هذا الطفل مادام والداه لم يبلغا عن فقده ، فلابد من أن حادثا حدث لهما ، وأن هذا الحادث من الخطورة بحيث ألهاهما عن التنبه لغيابه ، ومن الممكن جدا أن يكون هذا الحادث موتا أو قتلا ، مادام الطفل يهذى بهذه الأشياء ، ويفزع من العودة إلى البيت .

أليس من الجائز أيضا أن يهدينا هذا الخيط إلى طرف آخر من أطراف هذه العصابة التى تعددت أوجه نشاطها ؟ وأخذت تتورط فى جريمة بعد جريمة لاخفاء سر هارى لايم ؟

وأخذت الطفل من يده وقلت له :

ـ هيا نشرب اللبن معا ، ولا لزوم إلى العودة إلى البيت .

فظهر فى عينيه الشك ، بيد أن ابتسامتى تكفلت له بالطمأنينة فاستسلم لى وأخذته إلى مكتبى وأجلسته فى مقعد وثير ، ولاحظت من طريقة جلوسه أنه سيد صغير ولاشك متعود على حياة الرفاهية والنعمة ، وادركت ايضا أنه ولاشك تحت رعاية مربية ، فقلت لنفسى أجرب هذه الناحية فى اكتشاف شخصيته .

فقلت له كأنى أتكلم عرضا وأنا أقدم إليه قطعة حلوى :

- كانت لى وأنا فى مثل سنك مربية سخيفة جدا ، لهذا كنت أسميها عين الغولة ، مع أن اسمها الحقيقى مريم ، وأنت لا تستطيع يا صديقى الصغير أن تتصور الألاعيب السوداء والفصول التى كنت أغيظها بها ، سأحكى لك الآن جانبا من هذه الفصول ، ولكن أخشى ان تصنع مثلها بمربيتك ، وقد تكون مربيتك سيدة ظريفة جميلة لا تستحق شيئا من المشاغبة أو المضايقة .

فقال الصغير بتطلع الأطفال :

- بل خبرنى خبرنى .

فرفعت حاجبى فى دهشة مصطنعة وقلت :

- هل مربيتك سيئة إلى هذا الحد ؟ صفها لى ، ما أسمها ؟ .. فهز الصغير رأسه فى وقار مضحك بالنسبة لسنه وقال :

- لا أدرى بالضبط !

وهنا أصبحت دهشتى حقيقية بلا تصنع ، وقلت له :

- كيف لا تدرى ؟

وبنفس الوقار المضحك أجابنى :

- الحقيقة انه ليست عندى مربية فى الوقت الحاضر !

وانتظرت أن يتم كلامه .. ولكنه انصرف إلى أكل الحلوى وتقليب يديه والنظر فى أظافرهما ، كأى عضو وقور فى مجلس اللوردات ، ولم أجد بدا من الاستمرار فى الأسئلة .

ـ لماذا ؟ هل تقوم ماما بنفسها بالعناية بك ؟

ـ ماما مسافرة ، وبابا أيضا .

هاها .. هذه أول ثمرة من المعلومات أحصل عليها من هذا الشاهد الصغب المراس .

ـ إذن من الذى يقوم بشأنك ؟

ـ الحقيقة أن مسز هودجز مربيتى السابقة طلبت العودة إلى انجلترا ، وسافرت فعلا ، والمربية الجديدة ستحضر بعد غد ، هكذا قال لى بينز . ولا أدرى كيف ستكون المربية الجديدة .

ـ من بينز ؟

ـ بينز .

وكأنما اعتبر هذا تفسيرا كافيا وإلا كنت غبيا فى نظره ، فعدت إلى حكاية الألاعيب لأستخدمها طمعا فى استدراجه .

ـ مادمت لا تعرف هذه المربية الجديدة ، فلماذا أنت متلهف على معرفة الألاعيب الشريرة التى كنت أصنعها بمربيتى الشريرة ؟ لا أظن أن هذه الألاعيب لها لزوم عندك .

فحملق فى وجهى بسذاجة وثبات معا وقال :

ـ تنفعنى مع مسز بينز .

ـ من مسز بينز ؟ ولماذا تعاكسك مسز بينز ؟

فهز كتفيه وقال :

ـ هذا لا يهم على كل حال ، ويمكنك الا تحكى لى شيئا .

فخيب هذا الماكر أملى ، ولكنى تذرعت بالصبر وقلت :

ـ ولماذا لا يهم الآن ؟ إنها تعاكسك .

فحملق الطفل من جديد باستغراب كأن هذا السؤال لا معنى له ، وظل

يحدق فى وجهى كمن يستطلع ما وراء سؤالى ثم قال :

ـ لأنها ماتت ... قتلت !

احق هذا ؟ اليس هذا حلما رأيته ؟

فهز كتفيه حتى سقطت خصلة من شعره على عينه وقال :

ـ ربما . ولكن لابد أنها ماتت حقيقة .

ـ لماذا ؟ ... لابد ؟

فحملق الطفل من جديد بدهشة أكثر وقال :

ـ طبعا ... لو لم تكن ماتت مقتولة ، ما كنت أرى شبحها على رصيف الشارع ، أتظن أنى أصرخ وأبكى إلا من شبح حقيقى ؟ إن فيليب يا سيدى لا يصرخ أبدا من أشباح الأحلام !

مرحى مرحى ، هذه خطوة أخرى كبيرة فى سبيل التقدم ، لقد عرفنا أن اسمه فيليب ، وعرفنا أيضا أن أمه وأباه على سفر ، وأن هناك احتمالا لوجود جريمة قتل ، وإن كان خيال الأطفال فى هذه السن من المسلم به أنه واسع جدا ، وربما تكون المسألة تأليفا من فيلم بوليسى أو قصة من قصص الاذاعة ، أو مجرد تنفيذ وهمى لرغبة مكبوتة أن تموت مسز بينز هذه مقتولة ، وإن كنا لا نعرف بالضبط من هى مسز بينز ولا أين تسكن .

وفى حالة وجود جريمة القتل قد نجد لها صلة بقضية لايم ، لهذا يجب الا أترك هذا الطفل المتعب حتى أعرف الحقيقة كلها .



وجدت من الأوفق بعد ذلك أن أسأل جميع المناطق تليفونيا هل وصل إليهم تبليغ عن قتل امرأة اسمها مسز بينز ، يعنى انجليزية . وكلفت الضابط بالقيام بهذا السؤال خلسة من غير أن يشعر الطفل بشىء .

وبعد أن تركته قليلا ينعم بالهدوء قلت له :

- والآن يا فيليب ، ماهو اسمك الآخر ؟

فأجابنى من غير أن ينظر نحوى :

ـ اسم آخر ؟ لم يكن لى أبدا أى اسم آخر .

ـ اسمك فيليب ماذا ؟

ـ فيليب فقط ، هكذا ينادينى الجميع .

وهذا طريق آخر مسدود ، بعناد أو سذاجة الشاهد الصغير ، ولم أفقد الأمل ، فقلت له :

ـ يمكننا أن نخيف شبح مسز بينز .

فظهر الاهتمام فى وجهه وحملق غير مصدق :

ـ أحقا ؟ ...

ـ حقا ... ولكن يجب أن نعرف على الأقل اين هى بالضبط حتى نقوم بتخويف شبحها .

ـ لا أعرف أبدا إلا رقم البيت وهو ٤٨ .

ـ فى أى شارع يا فيليب ؟

ـ أنت تعلم أن هذه الشوارع النمساوية لها أسماء ثقيلة على لسانى . لا أذكر من الشارع إلا كلمة اشتراسى .

ويستطيع القارىء أن يتصور مبلغ غيظى إذا تذكر أن كلمة اشتراسى هى الترجمة الألمانية لكلمة شارع ! . نا لم نتقدم خطوة واحدة فى البحث وراء الحقيقة !

ـ ألا تذكر شيئا آخر ؟

ـ مثل ماذا ؟

ـ اسم والدك مثلا .

فضحك الصغير وقال :

ـ هذا مضحك جدا ، تسألنى أن أذكر اسم والدى ؟

ـ طبعا أسألك عن هذا .

ـ وهذا هو المضحك فى الأمر ، لكل شخص يعرف كيف ينادى أباه .

ـ وكيف تنادى أباك ؟

ـ دادى طبعا ! ..

واوشكت أن أضرب رأسى فى الحيط من الغيظ .. ولكنى تمالكت غضبى وابتسمت ابتسامة عريضة ثم قهقهت وجعلت أرفص الأرض بقدمى لادارى غيظى .. وقلت :

ـ فعلا شىء مضحك يا فيليب هاه هاه هاه .. وطبعا تنادى أيضا والدتك يامامى ، حقا ما أغبانى ..

فقال الملعون الصغير بكل هدوء :

ـ أليس كذلك ؟ !

ولكن كان لابد من التفويت والصهينة .

ـ أقصد يا فيليب ، كيف يدعو الآخرون أباك ؟

ـ بينز مثلا ؟ ...

ـ مثلا ...

ـ أوه ! يدعوه دائما بكل احترام « يا سيدى » ! .

فرفعت حاجبى وقلت بتعجب :

ـ هكذا ؟ .. والآخرون يا فيليب .

ـ مثل من ؟

ـ أى أحد يا فيليب ، وهل أدرى أنا من هم الآخرون ؟

ـ ماما ؟

ـ إنها تدعوه بل .

فقلت فى نفسى هذا شىء أفضل من لا شىء ... معناه أن اسمه وليم فهذا اختصار للتدليل ، ولكن اسم وليم لا يدل على شىء .

ـ وكيف ينادى والدك والدتك ؟

ـ يدعوها الفتاة العجوز ، وأحيانا يناديها ميج .

وهذا معناه أن اسمها مرجريت ، وهذا أيضا شىء أفضل من لاشىء ، ولا يبقى علينا إلا البحث فى الأرشيف عن أسماء المقيمين الانجليز فى فيينا لنجد زوجين بهذا الاسم لهما طفل اسمه فيليب .

واقبل الضابط بنتيجة استطلاعاته فى المناطق الأخرى ، ليقول انه لم يحدث أى تبليغ عن جريمة قتل من هذا النوع ، وكان الضابط يميل إلى الاعتقاد القاطع بأن حكاية الجريمة والشبح من صنع خيال الطفولة الخصب ، فكلفته أن يراجع بنفسه أرشيف العائلات البريطانية على ضوء معلوماتى القليلة جدا التى حصلت عليها بعناء شديد من فيليب الصغير .

وبعد نصف ساعة تقريبا حضر الضابط ومعه بطاقات تحمل صورا فوتوغرافية مستخرجة من أرشيف البوليس ، وكانت صورة الطفل هى صورة فيليب منذ سنة ، فأخذت صورة الأب والأم إلى فيليب ، وقلت له :

ـ أنظر أليس هذا بابا وهذه ماما ؟

فظهر السرور على الطفل ، وبذلك نجحت التجربة ، ومن الأرشيف عرفنا اسم الشارع بسهولة ، ولم يبق علينا إلا إرجاع الطفل إلى هناك .

ونهضت لأرسله مع جندى .. ولكن الطفل أخذ يصرخ .

فقلت له :

ـ سأذهب أنا معك .. وسيذهب أيضا هذا الضابط وهو أخصائى كبير جدا وخبير فى مسائل الأشباح والعفاريت ، وسيتولى تخويف شبح مستر بينز مهما كان هذا الشبح عنيدا .

ـ أهو خبير حقا فى العفاريت ؟

ـ خبير كبير جدا ، كيف لم تعرف ذلك يا فيليب ؟

ـ كيف أعرفه يا سيدى ؟

ـ كان يجب على مثلك يا فيليب أن يكون أمهر من ذلك وأدق ملاحظة ، ألم تلاحظ يا فيليب أنه أحضر بطريقته السحرية صورة والدك ووالدتك ؟

ـ أوه حقا !

ـ إنه ساحر عظيم يا فيليب ، وبمجرد أن يراه الشبح ، سوف يتبخر فى الهواء راكبا مكنسة !

فظهرت الروعة والنشوة على وجه الطفل الصغير كأنه يشهد فيلما بالتليفزيون ، ثم وضع يده فى يدى ، واتجهنا إلى سيارة الجيب التى سوف تقلنا إلى القصر الفخم الذى كان من القصور القليلة التى سلمت من القنابل .

وكان ظاهرا على فيليب التلهف الشديد على المغامرة ، ويرمق الضابط خبير العفاريت بكل إعجاب وهو مبهور .

أما أنا فكنت أشد عصبية وقلقا من فيليب الصغير ، كنت متلهفا على معرفة ما عسى أن يتكشف عنه موضوع الشبح ، وهل هناك جريمة حقا أم هو خيال طفل ، وهل هذه الجريمة إن وجدت ستضع فى يدنا بداية خيط يؤدى بنا فى النهاية إلى أحد أعضاء عصابة لايم ؟

هذا ما توقعت أن نعرفه ، وعسى أن تكون على أبواب الحقيقة التى حيرتنا طويلا ، وبلغت لهفتى غايتها والسيارة تدخل من الحديقة الواسعة .



وبينما سيارة الجيب تدخل الحديقة خطر لى أن أسأل فيليب وقد توثقت بيننا المودة والثقة :

ـ من فى البيت فى الوقت الحاضر يافيليب ؟

ـ بينز .

ـ ماذا يصنع بينز فى البيت بالضبط ؟

ـ إنه الساقى ، كبير الخدم .

ـ آه . ومن أيضا ؟

ـ لا أحد سوى روزى .

ـ روزى ؟ أهى كلبة .

ـ أوه ، إنها ابنة أخت بينز .

ـ أهى تلعب معك ؟

ـ أوه ، إنها كبيرة جميلة ، ولا تحبها مسز بينز ، لهذا أحفظ السر بينى وبين بينز حين تأتى روزى .

وغمز الملعون الصغير غمزة ذات معنى وأضاف :

ـ تأتى فى الليل وتذهب إلى حجرة نوم الضيوف ، ويقوم بينز فى الظلام ويذهب إلى بنت أخته الجميلة بعد أن يتأكد أن مسز بينز أخذت الدواء ونامت نومها الثقيل .

ـ ولماذا يذهب بينز إلى روزى ؟

ـ ليجلس معها ، فهى تخاف أن تنام وحدها ، هكذا قال بينز ، هاه ، هاه ، هاه . إنها فتاة كبيرة عمرها عشرون سنة وتخاف أن تستحم وحدها فيدخل بينز معها الحمام ، رأيتهما بعينى وبينز يقول أن بنت أخته تخاف !

وتبادلت مع زميلى الضابط خبير العفاريت نظرات ذات معنى .

إلى أى طريق يقودنا هذا المنكود الصغير ؟

وقطع علينا فيليب نظراتنا بقوله :

ـ من فضلك يا سيدى ، لا تذكر لبينز أنى أفشيت لك السر . فإنه وعدنى أن يأخذنى إلى الصين مع روزى . حيث نعيش معا كما كان والدى وهو كولونيل ، وكان بينز خادمه هناك .

ـ طبعا طبعا ، لن أقول له .

ـ لا تذكر شيئا عن روزى أبدا .

ـ طبعا طبعا .

ونزلنا من سيارة الجيب ، فجرنى فيليب من يدى إلى باب الخدم الخلفى الذى يؤدى إلى بدروم تحت الأرض وهو يقول :

ـ من هنا . فهناك سنجد بينز ... وهو عجوز لطيف جدا وستحبه وسيروى لك قصصا جميلة عن الصين .

وجذبت جرس الباب فأقبل بينز وفتحه ، ولمحنا على وجهه وهو واقف على عتبة المطبخ الأنيق اللامع أن تعبير القلق اختفى من وجهه عندما انتقلت نظرته من كسوتنا الرسمية إلى فيليب الصغير . وسألته :

ـ مستر بينز ؟

فأجاب بإشارة من رأسه ، لأنه لم يستطع العثور على الكلمات المناسبة .

ـ أهذا الغلام يسكن هنا ؟

فبلع بينز ريقه وقال :

ـ نعم .

وأدرك فيليب أن بينز ينظر إليه نظرة خاصة ، أدرك أنه يريد أن يوصيه بكتمان السر ، فظهر الحرج على وجه الطفل ، فهو حقا يحب بينز ، ولكن بينز خانه وتخلى عنه أو لاأدرى ماذا بالضبط جعل الفتى الصغير يستاء منه .

وخيل إلى أن فيليب يريد أن يتحرر من صلته القديمة مع بينز . ويتخلص من محبته بأنانية قاسية .

كان بين الصغير وبين الساقى سر ما ، أو أسرار . هذا واضح من نظرته وسحنته ، ولكنه يريد أن يمحو ذلك كله ، كما يفعل الجيش حين يتراجع متقهقرا ، فيأخذ فى قطع أسلاك التلغراف ، وينسف جميع الكبارى .

وليس من النادر أن يترك الجيش المتقهقر فى الأراضى التى يتراجع

عنها أشياء عزيزة جدا ، مثل صباح مشمس فى حديقة ، أو فتاة جميلة فى واجهة محل ، أو كوب من المثلجات عند بائع على الناصية . أو حكايات خرافية من بلاد الصين .

أجل ، ربما كان بينز يمثل ذلك كله فى صحبته وصداقته الطويلة للصغير فيليب ، بيد أن التقهقر يعنى دائما مصلحة أكبر من تلك الخسائر المؤقتة ، فحينما ينفخ فى النفير للانسحاب وتبدأ الجرارات والنقالات فى التحرك ، يخرج العجائز ويبكون طالبين أن يأخذهم المنسحبون معهم ، ولكنك لا تستطيع من أجل حفنة من العجائز أن تعرض المؤخرة فى جيشك للخطر ، فلابد للانسحاب أن يكون حاسما وسريعا .

هكذا أحسست أن حركة فيليب فى الالتصاق بى متجاهلا نظرات بينز تريد أن تتكلم ، كان مصمما على سحب تلك الصلة القديمة والتقهقر عنها نهائيا ، فلابد إذن من أن خطرا فظيعا جدا هو الذى دفع الطفل الصغير لذلك السلوك ، لابد من أن بينز أصابه بصدمة نفسية جعلت من المستحيل عليه بعدها أن يبقى على صداقتهما بأى شكل .

وبلل بينز شفتيه الجافتين ، وقال ، وكأنه يفرض أن فيليب الصغير روى لى شيئا ، فهو يحاول تفسيره أو تكملته :

- إن الطبيب هنا فى الداخل .

وأشار بحركة من ذقنه إلى داخل البيت ، وعيناه مثبتتان طول الوقت على فيليب كأنه كلب يتضرع بلغة لا يفهمها سيده ، ثم استطرد بعد لحظة :

- لقد خرج الأمر من يدى ، انتهى كل شىء ، لقد سقطت . أعنى تزحلقت على السلالم الحجرية فى سلم البدروم الداخلى ، وكنت أنا هنا فى المطبخ ، فسمعتها تسقط .

فقلت له :

- هل رأى الغلام شيئا ؟ هل رأى الحادث ؟

- مستحيل أن يكون رأى شيئا يا سيدى ، فإنى إلى أن فتحت الباب

الآن كنت اظنه نائما فى حجرته ، ولا أدرى كيف تسرب ونحن مشغولون إلى الخارج ، اليس من الأفضل أن نذهب به إلى حجرة نومه ليستريح ؟ هذا شيء فظيع ولا يجب أن يراه .

فسألته :

ـ أهى هنا فى الداخل ؟

ـ اسفل سلم البدروم . لم أحركها من مكانها سنتيمترا واحدا . حتى يتصرف الطبيب وتتصرف النيابة .

ـ إذن نذهب بالطفل إلى حجرته .

ـ نعم ، نخرج إلى الحديقة ، وندخل من الباب الأمامى ، حتى لا نمر به على الجثة .

وكانت نظرة بينز إلى فيليب واضحة جدا هذه المرة فى تعبيرها عن الرجاء الحار الأخير أن يحفظ هذا السرُ الخطير .

وقلت لفيليب :

ـ تعال بنا ، سأصحبك إلى حجرتك ومعنا الخبير الشهير .

ـ ليس من الباب الآخر ؟

ـ لماذا ؟ أنت سيد صغير تدخل من الباب الأمامى الكبير ، فأنت فى غياب والدك سيد البيت ، أذهب من هناك معى .

وإذا فيليب يصرخ فزعا ويقول :

ـ ليس من هناك !

ـ لماذا يافيليب ؟

لأنها مقتولة هناك ، وقعت من السلم الكبير إلى البهو فنظرت نظرة صاعقة إلى بينز وقلت له :

ـ كيف تقول أنك لم تنقلها من مكانها خطوة واحدة ؟ فيليب يقول إنها سقطت فى البهو الأمامى ، ولهذا يصرخ ولا يريد أن يذهب من هناك .

واخذ فيليب يصرخ من جديد :

- إنها هناك ، إذا ذهبنا سنجدها هناك .

وظهر الرعب على وجه بينز ، وأخذت فيليب بين ذراعى ، وأخذ يروى لى كل شىء باندفاع ، وقد قرر أخيرا ألا يكتم شيئا من أسرار بينز التى أرهقت صدره الصغير بعد صدمته .

وتتبين أن مسز بينز تنبهت عند الفجر لسبب ما ، فلم تجد زوجها بجانبها ، فظنت العجوز أنه ذهب إلى حجرة فيليب كى يطمئن عليها ، وصعدت إلى الطابق الثانى ، ودخلت على فيليب فاستيقظ العجوز بوجود روزى التى كان يظنها بنت أخ بينز ، وهو يعلم أن بينز أنذره بضياع صداقتهما الجميلة أن أخبر مسز بينز بحضور روزى فى الليل كى تبيت فى حجرة الضيوف القريبة من حجرة فيليب .

خاف الطفل ولم يجب ، وإذا بها تسمع صوت الدش فى حمام الضيوف ، فقالت بغيظ :

- لماذا يستحم هذا المنكود فى هذا الحمام ؟

فخاف الطفل عليه من زوجته المشاكسة وقال معتذرا عنه :

- ليس هو . إنها روزى بنت أخيه ، وهى تخاف أن تستحم وحدها ، فيضطر أن يستحم معها ..

ولم يشعر إلا والعجوز تصرخ وتهجم على الطعام ، ووقف فيليب متواريا وراء فرجة باب حجرته وهو يرتعد من الخوف ، ورأى بينز يتماسك وهو عار تماما مع زوجته ليمنعها من الهجوم على روزى التى كانت عارية أيضا وتقطر ماء من الحمام ، وسمعها - أى مسز بينز - تهدد باستدعاء البوليس ، وتهم بنزول السلم ونزل بينز يحاول منعها ، فتسرب فيليب ووقف ينظر من سور السلم ليرى المعركة ، وبعينيه رأى بينز يقذف بها من فوق سياج السلم فتهوى على الأرض كالدوامة أو كالمظلة المفتوحة بين ثيابها الواسعة ، إلى أن وقعت على أرض البهو الأمامى الكبير .

وبعد ذلك رأى بينز يأخذ فى فحص الجثة ، ويتأكد من موتها . ثم أخذ

روزى من يدها بعد أن لبست ثيابها وجعلها تتسرب من الباب الخلفى .

ولم تكن روزى هذه بنت أخيه بل كانت عشيقة له من خادمات البيوت فى الحي ، وكان يعد العدة للهرب معها إلى الصين ، ضيقا بحياة النكد مع زوجته العجوز .

أما فيليب ، فإن الصدمة أذهلته ، فانتهز فرصة انشغال بينز بإحضار ماء لغسل آثار الدم ، وكان بينز لم يشعر بنهوضه من نومه ، وتسرب إلى الحديقة ثم إلى الشوارع على غير هدى ، نتيجة الصدمة النفسية والعصبية .

وبعد ذلك كان من السهل أن يعترف بينز بنقل الجثة إلى البدروم ثم استدعاء الطبيب على سبيل التمويه .

وهكذا عندما رأى فيليب على رصيف الشارع العجوز السكرانة ظنها من بعيد عفريت مسز بينز ، فأخذ يصرخ .



وبذلك اتضحت الحقيقة ، وتبين فعلا أن هناك جريمة قتل وقعت ولكنها لم تكن كما تمنيت خيطا يوصلنى إلى ضوء جديد فى لغز قضية لايم .

كانت شيئا مستقلا ، ولكنه برهان جديد على ما فى حياة المخبر السرى أو المحقق الجنائى من متاهات يتعب فى تعقبها إلى النهاية . ليجد أنه وصل إلى جدار أصم .

وهكذا تعين على أن أعود لاستأنف حل لغز لايم من كشك المجارى . بعد أن خدعنى سراب شبح فيليب ذلك الصباح خداعا لا يستهان به .

الفصل العاشر

الميت الحى

كان اليوم يوم الأحد ، وهدوء ذلك اليوم قد مد رواقه على مدينة فيينا بأسرها ، وكانت الريح قد سكنت ، والثلج لم يسقط منذ أربع وعشرين ساعة ، لهذا ظلت عربات الترام طيلة فترة الصباح مكتظة بالناس ، يذهبون فيها إلى المشارب القائمة فى الضواحى لاحتساء النبيذ الطازج ، وينزلقون على ثلوج التلال المحيطة بالمدينة .

وعبر مارتنز القناة فوق الكوبرى العسكرى المؤقت وهو يشعر بفراغ شامل ، لأن الشباب رحلوا مع أحذية انزلاقهم حيث الرياضة والهوى ، فلم يعد باقيا حوله إلا من يؤثرون نوم القيلولة بعد الغداء ، وهم من تجاوزوا مرحلة الشباب .

ودلته لافتة على أنه يوغل فى المنطقة الروسية ، بيد أنه لم يشهد أى علامة من علائم الاحتلال ، فالحق أن الجنود الروس يكثرون فى المنطقة الدولية الوسطى ، ولا يكثر عددهم فى المنطقة الروسية الخالصة .

وكان مارتنز قد أغفل عن عمد انذار مستر كورتز باعتزامه زيارته ، لأنه كان يفضل أن يهبط عليه مفاجأة ، ومن غير تدبير سابق لاستقباله .

واحتاط مارتنز فحمل معه جميع أوراقه ، بما فيها تصريح المرور المصدق عليه من الدول الأربع ، وهو يتيح لحامله بمجرد ابرازه أن يتجول بملء حريته فى جميع مناطق فيينا من غير عائق .

ولم يجد مارتنز أقل صعوبة فى العثور على العمارة التى كان يسكن فيها

كورتنز ، ولما رن الجرس ، انفتح الباب على الفور ، وكان الذى فتحه هو كورتز نفسه ، كأنما كان ينتظر زائرا فى تلك اللحظة ، وقال على الفور :

ـ أوه ! أهذا أنت يا رولو ؟

وعبث باصبعه فى راسه بحركة تدل على الحرج أو الضيق ، واخذ مارتنز يتساءل بينه وبين نفسه لماذا يبدو له كورتنز مختلف السحنة جدا عما يعهده ، وأخيرا أدرك السر ، فإن كورتنز لم يكن مرتديا فى تلك اللحظة طاقية شعره المستعار .

وأعجب ما فى الأمر ان كورتز لم يظهر لعينيه فى هذه الحال أصلع تماما ، بل كان له شعر طبيعى جدا ، إلا أنه مقصوص قصيرا جدا .

وتمالك كورتنز نفسه بعد برهة فقال :

ـ كان من الخير أن تتصل بى تليفونيا ، فقد أوشكت ألا تجدنى هنا ، إذ أنى كنت عازما على الخروج .

بيد أن مارتنز لم يأبه وقال له :

ـ أيمكننى أن أدخل لحظة ؟

ـ بطبيعة الحال .

وفى الدهليز لمح مارتنز باب دولاب داخل الحائط مفتوحا ، ولمح فى داخله معطف كورتز ، ومعطفه الواقى من المطر ، وقبعتين رخويتين ... وطاقية شعره !

وعلق مارتنز على ذلك بقوله :

ـ إنه لمن دواعى سرورى أن أرى شعر راسك وقد نبت ثانية !

وعجب فى نفسه لأنه لمح فى المرآة وجه كورتز وقد اكتسحه فجأة احتقان كاللهيب ينطق بالحقد ، فلما استدار لينظر إليه مواجهة وجد كورتز يبتسم له فى شىء كثير من التواطؤ ثم يقول :

ـ إن الشعر المستعار يدفىء الراس .

فسأله مارتنز :

ـ راس من ؟

إذ خطر لمارتنز فجأة أن هذه الطاقية من الشعر المستعار كان من الممكن أن تنفعه جدا فى يوم الحادث ، ثم لم يلبث أن صرف عن ذهنه هذا الخاطر ، لأن ذلك لم يكن هو الهدف من زيارته ، فهو لم يحضر إلى بيت كورتز كى يحقق معه ، ولذلك آثر أن يقول له مباشرة :

ـ لقد حضرت كى أرى هارى !

ـ هارى ؟

فهز مارتنز رأسه إيجابا وقال :

ـ أريد أن أتحدث إليه .

ـ هل أنت مجنون ؟

ـ أنى فى الواقع مستعجل ، ولهذا لا مانع عندى من الاعتراف بجنونى أن كان هذا يختصر الوقت ، وكل ما أرجوه منك أن تلتفت جيدا إلى موضوع جنونى هذا ، فإن رأيت هارى أو شبحه ، فقل له أنى راغب فى التحدث إليه ، فالشبح لا يمكن أن يخاف من إنسان مثلى بالتأكيد ! بل الواجب أو المفروض أن يكون العكس هو الصحيح ، وموعدنا معا للقاء هو فى خلال الساعتين القادمتين بالقرب من « العجلة الكبرى » . وأنت تعرف هذا الموضع فى الحديقة العامة بفيينا ، فأرجوك أن استطعت الاتصال بعالم الموتى أن تسرع فى تبليغ هذه الرسالة إلى هارى لمصلحته .

وبعد لحظة استطرد متمما كلامه :

ـ تذكر أننى كنت صديقاً لهارى !

ولم يجب كورتز ، إلا أن شخصا خفيا كان يجلس فى حجرة مفضية إلى ذلك الدهليز ، سعل كأنه يتنحنح ، فقفز مارتنز ، وفتح بابا بحركة عنيفة ، وهو يتوقع تقريبا أن يرى الميت يظهر ، بيد أنه لم يجد هناك سوى الدكتور ونكلر جالسا فوق كرسى من كراسى المطبخ !

ونهض الدكتور واقفا .. وحياه بانحناء حاد على عادته فى حركاته التى

تكاد تكون معدنية ذات صليل ، فقال مارتنز :

ـ الدكتور ونكل !

على عادته فى تحريف الأسماء ، والحقيقة أن الدكتور ونكلر بأناقته المسرفة كان يبدو فى وضع شاذ جدا بجلوسه فى مطبخ ، وكان أمامه على مائدة المطبخ المصنوعة من الخشب الأبيض بقايا طعام مرتجل فى أطباق قذرة لا تتفق بالمرة مع اسراف الدكتور ونكلر فى النظافة الصحية .

وصحح الدكتور اسمه لهذا الانجليزى المندفع ، فى كثير من الارتباك ، وقال مارتنز لكورتز :

ـ أطلع الدكتور على موضوع جنونى ، فربما كان فى وسعه أن يقدم لك تشخيصا وافيا للحالة ، ولكن تذكر الموضع جيدا من فضلك ، بالقرب من « العجلة الكبرى » ، اللهم إلا إذا كانت الأشباح لا تظهر إلا ليلا ..

وغادر المسكن على الفور .



ولبث ينتظر زهاء ساعة وهو يتمشى بحماسة كى يبعث الدفء فى جسمه داخل سور « العجلة الكبرى » ، وكان المنتزه الكبير الذى خربت تماثيله وأجامه القنابل خاليا تقريبا فى تلك الساعة ما عدا كشكا تباع فيه فطائر من نوع خاص أشبه بالعجلة الكبيرة ، فأمامه طابور من الأطفال فى أيديهم التذاكر ، وبين حين وحين كان اثنان من العشاق يتسللان إلى إحدى مركبات العجلة الكبيرة ، وهى نوع من المراجيح الضخمة ، كى تدور بهم فى الهواء دقيقتين .

وظل مارتنز يتساءل من عساه يحضر ، وهل لم يزل هارى يقيم وزنا كبيرا لصداقته بحيث يأتى وحده ، أم أنه سيرسل من يحل محله ، أو يطلق عليه رجال البوليس الروسى كما حاول أن يفعل لاعتقال آنا شميت ؟

وعندما تجاوزت عقارب ساعته مدى الساعة بقليل أخذ مارتنز يسأل نفسه :

ـ اترى خدعتنى مخيلتى ؟ وهل الجثة التى يحاولون الآن استخراجها

من المقبرة سيتضح فعلا أنها جثة هارى ؟

ومن خلف كشك بائع الفطير انبعث صفير بنغمة خاصة عرفها مارتنز على الفور ، فتلفت وراءه وانتظر ...

هل هذا الدق السريع الذى ينتفض به قلبه دليل على الخوف ام على الحب ؟ أم لمجرد انبعاث ذكريات الماضى ؟

ويكفى أن هارى ظهر ، وكأن شيئا لم يحدث ، وكأن أحدا لم يدفن ، وكأن أحدا لم يوجد مذبوحا فى بدروم ، فها هو هارى يصل مرحا كالعهد به ، يصفر لحنه الطروب ، وهو لا يبالى شيئا كما كان غلاما فى المدرسة .

هارى !

- رولو ! طاب نهارك !



لا ينبغى أن تتصور هارى فى سحنة وغدْ سافل ، كلا فقد كان على خلاف ذلك تماما ، وأن الصورة التى له عندى فى ملفه صورة ممتازة وكان أحد المصورين المتجولين قد التقى به فى الشارع فجأة والتقط له تلك الصورة خلسة ، فظهر وقد تباعدت ساقاه ، أما كتفاه العريضتان فمقوستان قليلا ، وظهر على بطنه ذلك الانتفاخ الذى ينجم عن تعود الطعام الدسم بكميات كبيرة مدة طويلة ، وعلى وجهه تبدو صراحة مطلقة فيها كثير من المرح والثقة ، الثقة بأن الحظ الذى حالفه طول حياته سيظل يكفل له النصر دائما .

ولم يرتكب هارى غلطة ، فقد مد يده إلى مارتنز ، وهى يد من الممكن جدا أن يرفضها ، واكتفى بأن لمس مرفقه قائلا :

- ما أشوقنى إليك !

- إن عندنا ما نتحدث فيه يا هارى على انفراد .

- ليس من الممكن أن يكون فى فيينا الآن مكان أشد عزلة من هذا المكان !

وكان هارى طول عمره شخصا لبقا يجيد التصرف فى جميع المواقف ، وحتى فى حديقة هذا اللونابارك المتخرب استطاع أن يتصرف التصرف اللائق ببراعة فأعطى بقشيشا سخيا للمراة التى كانت تبيع التذاكر فخصصت لهما وحدهما مركبة من مراكب الأرجوحة ، أى وقت يريدان .

وقال هارى معلقا فى فكاهة :

- فيما مضى ، كان العشاق يفعلون ذلك ليستطيعوا العناق أو الوصال بثمن بخس ، وهم معلقون بين الأرض والسماء ، أما الآن فالعشاق مفلسون للأسف الشديد !

وأخذ هارى يرمق من زجاج المركبة الصاعدة فى الجو أشكال الناس وهم يتضاءلون رويدا رويدا بابتعاد المركبة عنهم وأخذت المدينة تتضاءل كلها ، ثم ظهر عن بعد مجرى الدانوب .

وبعد لحظة صمت قل هارى :

- لاشك يارولو أنه سرنى مرآك .

- لقد حضرت جنازتك .

فضحك هارى بكل سعادة وقال :

- أعترف يارولو أن لعبتى هذه كانت فى منتهى البراعة !

فقال له مارتنز وهو يهز راسه أسفا :

- ولكنها لم تكن فى غاية البراعة بالنسبة لصديقتك ، فقد كانت موجودة هناك وذرفت دمعا سخينا .

- إنها فتاة طيبة ، ولم أزل أحبها .

- أنا لم أصدق رجال البوليس عندما حدثونى عن عملياتك .

- ما كنت لأكتب إليك كى تحضر لو أنه خطر ببالى أن الحوادث ستجرى على هذا النحو ، بيد أنى لم أكن أدرى أن البوليس يتعقبنى .

- هل كان فى نيتك يا هارى أن تشركنى فى الأرباح ؟

- وهل تعهدني يارولو كنت في أي شيء من الأشياء ابقيك بمعزل عني

واخذ هارى يسند ظهره إلى باب المركبة التى جعلت تتأرجح وهى صاعدة وهابطة ، وهو يبتسم لرولو .. فتذكره مارتنز على الفور وهو بهذه الصورة تماما أثناء الدراسة وشعر أن هذا الشيطان لم يكبر ابدا ، فهو اشبه بشياطين مارلو ، ذلك الشاعر الذى صور الشيطان متمتعا بشباب دائم ، كالأشجار الدائمة الخضرة .

وسأله مارتنز بحزم :

- هل سبق لك أن زرت مستشفى الأطفال ؟ ألم تر ضحاياك الكثيرين هناك ؟

- ضحاياى ؟ لا تكن ممثلا يارولو ! وانظر قليلا إلى أسفل من فضلك !

وأشار بأصبعه من الزجاج إلى الناس الذين يسيرون فوق الأرض كأنهم ذباب أسود اللون ، ثم استطرد :

- أتشعر فعلا يا رولو بشفقة حقيقية وأسف عميق إذا تلاشت ذبابة من هذا الذباب وكفت عن الحركة إلى الأبد ؟ وهل إذا قلت لك يا عزيزى إنى سأعطيك عشرين ألف جنيه عن كل ذبابة صغيرة من هؤلاء تتلاشى وتتوقف عن الحركة ، ترفض ذلك المبلغ .. من غير تردد ؟ أم أنك ستأخذ فى إحصاء كم ذبابة من هؤلاء أنت مستعد للتضحية بها ؟ والمبلغ معفى من ضريبة الدخل ياعزيزى !

وابتسم هارى ابتسامته الصافية الصبيانية وهو يستطرد قائلا :

- إن هذه هى الوسيلة الوحيدة للادخار فى زمننا هذا !

- ولماذا لم تقصر عملياتك على المطاط ؟

- ومثل كولر ؟ لا ياحبيبى ! أنا طول عمرى رجل طموح ! ثم إنهم لن يستطيعوا وضع يدهم على يارولو ، فإنى رجل بارع كما تعلم . ومن حق كل إنسان بارع أن يظهر براعته .

وكانت المركبة الصغيرة تهتز تأهبا للوقوف فى القمة العليا من دائرة

الأرجوحة الضخمة ، والتفت هارى لينظر من بابها فصار ظهره إلى جهة مارتنز ، وفكر مارتنز بسرعة ، انى أستطيع بضربة واحدة قوية أن احطم الزجاج ، فإذا بجسم هارى يهوى من هذا الارتفاع ليستقر بين من سماهم ذبابا !

ـ أتعلم أن رجال البوليس فى نيتهم يا هارى أن يحفروا قبرك ؟ فمن تراهم سيجدون هناك ؟

فقال هارى بكل بساطة :

ـ هاربن !

ثم التفت نحو مارتنز وقال بكل اهتمام :

ـ أنظر إلى جمال السماء !

وكانت العربة قد وصلت إلى قمة الأرجوحة تماما واستقرت والسماء من حولها ملونة بأشعة الشمس ألوانا عجيبة .

ـ لماذا حاول الروس يا هارى أن يقبضوا على آنا شميت ؟

ـ لأنها يا صديقى تحمل أوراقا مزورة !

ـ لقد ظننت أنك أنت الذى حاولت بهذه الوسيلة إحضارها إلى هذه المنطقة .. لأنها كانت عشيقتك .. وتريد الآن أن تجعلها بجوارك .

فقال هارى باسما :

ـ لا يصل نفوذى إلى هذا الحد .

ـ وماذا كان سيحدث لها أن قبض عليها ؟

ـ شىء بسيط ، كانوا سيرسلونها إلى المجر وطنها ، وفى الواقع ليس هناك ما تلام عليه ، فمن الخير لها الف مرة أن تعيش فى وطنها المجر ، فهذا افضل من الحياة هنا تحت نير البوليس الانجليزى .

ـ ولكنها لم تبح بشىء يتعلق بك .

ـ إنها فتاة رائعة .

ـ وهى تحبك .

ـ إذن يجب أن تهتم بهم يا عزيزى فهى تستحق ذلك عن جدارة . وأنا مسرورة جدا لاهتمامك بها ، لأنك طبعا ستتخذ الاحتياطات لمنعها من فتح فمها ، هذا مع العلم بأنها لا تعلم شيئا هاما فى الواقع .

ـ انى اشتهى أن اقذفك من النافذة !

ـ ولكنك لن تفعل طبعا يا صديقى ، فمشاجراتنا لا تستغرق أبدا وقتا طويلا ، أتتذكر مشاجرتنا فى موناكو عندما أقسمنا أن كل شىء بيننا قد انتهى ؟ أن لى ثقة عمياء فيك يارولو . وقد حاول كورتز أن يقنعنى بعدم الحضور إليك ، ولكنى أعرفك يارولو ، بل أنه حاول إقناعى أن أدبر لك ... حادثا ! واكد لى أنه من السهل تدبير ذلك بواسطة هذه المركبة بالذات .

ـ ولكنى أقوى منك .

ـ ولكن عندى مسدس ، فهل تظن أن أثر الاصابة بالمسدس سيظهر فى جسمك إذا رميتك من هذا الارتفاع بعدها ؟

وأخذت العربة فى التحرك من جديد نحو القاع ، ورويدا رويدا أخذ الذباب الصغير على الأرض يكبر ليتخذ الصورة الآدمية ، وعندئذ قال هارى :

ـ ما أغبانا إذ نتحدث هكذا يارولو كأنى يمكن أن أصنع بك شيئا كهذا ، أو تصنع بى أنت ذلك الشىء .

وصمت قليلا ثم قال :

ـ كم تربح أنت من رواياتك فى السنة ؟

ـ نحو ألف جنيه .

ـ تقطع منها ضريبة ، أما أنا فأربح ثلاثين ألفا لا أدفع عنها ضريبة ، وهذه هى الموضة !

ـ أين ضميرك الكاثوليكى ؟

ـ تحت أمرك ! فأنا لا أضر الأرواح ، والأرواح هى التى تهم الله ، وتذكر أن الموتى أسعد حالا فى ملكوت الله منهم على الأرض ، فأنا أقدم

لهم خدمة بتوريدهم للملكوت !

وبعد برهة استطرد :

ـ انى استطيع كما تعلم أن أدبر لك مكانا فى منظمتى وستكون عضوا نافعا ، فليس عندى نواب فى قلب المدينة .

ـ نسيت كولر وونكلر ؟

ـ لا تحاول أن تكون بوليسيا يا عزيزى .

وغادر المركبة ، فوضع هارى يده من جديد على مرفق مارتنز واخذ يحدثه عن الأصدقاء القدامى لحظة ، إلى ان قال :

ـ يجب أن افارقك الآن هنا وسنتقابل يوما ما ، وإذا احتجت إلى ، تستطيع أن تتصل بى عن طريق كورتز لتقابلنى .

وابتعد قليلا ثم التفت ولوح بيده ، لأنه كان من الحصافة بحيث لم يحاول المصافحة ، فصاح مارتنز فجأة يناديه ويستوقفه :

ـ لا تعتمد على يا هارى فى تغطيتك !

غير أن المسافة بينهما كانت اكبر من أن يصل معها صوته إلى هارى .

المــرأة

قال لى مارتنز :

« كانت آنا شميت فى المسرح استعدادا لحفلة الأحد الصباحية ، ووجب على أن أشاهد التمثيل هناك ، وكانت آنا تمثل تمثيلا رديئا ، لأنها فى الواقع ممثلة فاشلة حتى فى أحسن أدوارها .

« ولما انتهت من التمثيل ذهبت لمقابلتها فى مقصورتها ، فوجدتها فى غاية الاضطراب ، وأعتقد أنها كانت تحسبنى أريد التودد إليها على عادة بعض الضباط فى قوات الاحتلال ، ولم تكن لديها أية رغبة فى ذلك ..

« وبدأت بأن ذكرت لها أن هارى لم يزل على قيد الحياة ، وأعتقد أنها سرت لذلك سرورا عظيما ، أو هذا ما أعتقدته قبل أن أدخل عليها ، ولكن ما حدث منها أنها ظلت جامدة فى مكانها أمام المرآة ، ودموعها تتساقط فى حق الكريم المفتوح ، فشعرت فى تلك اللحظة أنى أحب وجهها هذا الكالح المشوه بالبكاء !

« وذكرت لها مقابلتى مع هارى بالتفصيل ، ولكن يظهر أنها لم تكن منصتة لما أقول مطلقا ، لأنى عندما انتهيت قالت :

ـ كنت أفضل أن يكون قد مات .

ـ كان يستحق ذلك .

ـ بل أعنى أنه وهو ميت يكون بعيدا عن الأذى وعن أفكار الناس

فقلت لمارتنز :

ـ هل اطلعتها على الصور التى أعطيتك إياها ؟

ـ أى صور ؟

ـ صور الأطفال الضحايا .

ـ نعم ، وأعتقد أنه كان لابد من علاج حاسم لسموم حب هارى التى فى دمائها ، ولهذا وضعت الصور بين إحقاق المكياج ، فلم يكن فى وسعها أن تتحاشى النظر إليها ، فقلت لها :

ـ إن هارى لا يمكن القبض عليه إلا إذا استدرجه البوليس البريطانى إلى هذه المنطقة ، ومن واجبنا أن نساعد البوليس على ذلك يا آنا .

ـ كنت أحسبه صديقك يا رولو مارتنز .

ـ كان صديقى !

وعندئذ قالت لى :

ـ لن أساعدك أبدا يارولو على إلقاء القبض على هارى ، صحيح أنى لا أريد بعد الآن أن أسمع صوته ، لا أريد بعد الآن أن يلمسنى ، ولكنى أرفض أن أتسبب له فى أذى .

قال مارتنز معلقا وهو يحدثنى :

ـ فامتلأت نفسى بالمرارة ، ولا أدرى لماذا ، فقلت : إنك تتمنين أن يعود إليك يا آنا .

ـ كلا ، لا أريده أن يعود . ولكنه معى دائما فى داخل نفسى ، إنه واقع حياتى ، واقع مفروض يختلف جدا عن الصداقة ، وحينما أحلم أن رجلا يطارحنى الغرام يكون هارى دائما هو ذلك الرجل .

فسألت مارتنز أستحثه على الكلام :

ـ وماذا فعلت بعد أن قالت لك ذلك ؟

ـ قمت وتركتها ، والآن عليك أنت أن توجهنى ، فما الذى تريدنى أن أصنعه ؟

– أريد أن أتصرف بسرعة ، فالجثة التى كانت فى تابوت هارى هى فعلا جثة هاربن ، وعلى أساس تقرير الطبيب الشرعى نستطيع أن نقبض على ونكلر وكولر فورا ، فهما تحت نفوذنا .

– وكورتز ؟

– أما كورتز فهو خارج منطقتنا الآن ، وكذلك السائق المشترك فى الحادث ، وسنرسل إلى الروس طلبا رسميا كى يسمحوا لنا بالقبض على كورتز ولايم ، بيد أنه اجراء شكلى من قبيل الرسميات ولا فائدة منه عمليا .

– وما العمل إذن ؟

– إذا كان فى نيتك أن نستخدمك طعما ، فيجب أن ترسل إشارتك إلى لايم فورا ..

– لماذا ؟

– لأنى أتصور أن لايم تركك تأتى إلى هنا سالما كى يقوم بعدها بإشراكك فى عصابته ، وإنت قد ذهبت وقابلت كولر وقلت له أن سر القبر قد افتضح فيجب أن نترك كولر يدبر الهرب لنفسه فى سبيل أن نحصل نحن على الصيد الكبير هارى ، وتذكر أنه ليس عندنا أى دليل يثبت ان كولر اشترك فى عمليات البنسلين .

– وأين سيهرب كولر ؟

– سيهرب إلى المنطقة الثانية كى يقابل هناك كورتز ، وبذلك سيعلم لايم أنك قمت بلعبتك ، وبعد ثلاث ساعات عليك أن توصل إليه إشارة بأن البوليس يتعقبك ، وأنك مختف عن أنظار البوليس وتريد مقابلته .

– ولكنه سوف لا يأتى .

– لست واثقا من هذا ، فإننا سنختار بعناية المكان الذى تختفى فيه ، أى فى موضع يظن ان الخطر عليه فيه اقل ما يكون .

– أتظن أن المحاولة تنجح ؟

– إنها مسألة تستحق المجازفة والمحاولة على كل حال ، وفكرة محاولة

إنقاذك من يد البوليس سوف تثير فيه روح المغامرة وترضى غروره ، ثم هو سيحاول بإنقاذك أن يشترى سكوتك .

فقال مارتنز بعناد :

ـ طول زمالتنا فى المدرسة لم يحاول فى مرة انقاذى بل كنت انا الذى اتحمل عنه العقاب .

ـ ولكنك الآن تعرضه إذا لم ينقذك إلى افشاء سره ، فهل انت موافق على هذه الخطة ؟

فسكت وأعطانى صور الضحايا الأطفال ، فوضعتها امامه على المكتب ، فتأملها طويلا ، وأخيرا قال :

ـ موافق .



وفى البداية سار كل شىء طبقا لما توقعناه ، فلم نعجل بالقبض على الدكتور ونكلر الذى كان قد عاد من المنطقة رقم ٢ وانتظرنا إلى أن قام مارتنز بإنذار كولر بافتضاح سر مقتل هاربن ودفنه باسم لايم .

وقد سر مارتنز من مقابلته الثانية لكولر ، إذ أن كولر استقبله من غير حرج ، وبترحيب شديد :

ـ أهلا مستر مارتنز ، كم يسرنى أن أراك ثانية ، تفضل بالجلوس . وإنى لسعيد أن كل شىء قد تمت تسويته بينك وبين الكولونيل كالواى ، فهذا الشخص مستقيم جدا .

فقال له مارتنز بأسف :

ـ بل لم تتم تسوية شىء .

ـ أرجو الا تكون غاضبا على لأنى قمت باخطاره انك قابلت كوخ قبيل مصرعه .

ـ ولماذا أخطرته بذلك ؟

- لقد فكرت فى المسألة على هذا النحو ، فإن كنت بريئا سيكون من السهل عليك أن تبرر الزيارة وتثبت براءتك ، وإن كنت مذنبا ، فلا تؤاخذنى لأن استلطافى لك لا ينبغى أن يحول بينى وبين خدمة العدالة بكل أمانة . فهذه هى واجبات المواطن الصالح يا مستر مارتنز .

فغمز مارتنز بعينه وقال :

- ومن واجبات المواطن الصالح مثلا أن يتقدم بشهادة الزور فى تحقيق جنائى عن وفاة هارى لايم !

فتجاهل كولر إشارته وقال :

- إن وفاة هارى لايم مسألة أصبحت عتيقة ، وكل ما أخشاه أن تكون متأثرا من تصرفى يا مستر مارتنز ، وأرجوك أن تفكر فى المسألة على النحو التالى ، فإن المواطن الصالح ملتزم بالاطاعة للقوانين ..

فقاطعه مارتنز قائلا :

- دع عنك المغالطة .

- ماذا تعنى ؟

- أعنى أن البوليس استخرج الجثة من قبر هارى لايم ، وعرف الحقيقة ، ولهذا سيقبضون عليك أنت والدكتور ونكلر ، وأريد منك أن تحذر هارى ...

- لست أفهم ماذا تقول ؟

- لا بل أنت تفهمنى جيدا جدا !

والحقيقة إنه كان فاهما تمام الفهم ، وسرعان ما تركه مارتنز فجأة لأنه شعر بالضيق من ذلك الوجه الضاحك الذى يمثل المواطن النموذجى .

ولم يعد أمامنا بعد تلك الزيارة إلا أن ينصب الكمين ، ولهذا الغرض قمنا بدراسة خريطة كاملة دقيقة لابنية مجارى فيينا واقبيتها تحت الارض ، واستنتجت أن احسن واضمن موضع يمكن ان نستدرج لايم إليه هو مقهى قريب من المدخل الرئيسى لمجمع المجارى الكائن فيما ظنه

مارتنز خطأ كشكا للجرائد ، فليس على لايم الا أن يبرز من تحت الأرض مرة أخرى ، ويجتاز مسافة خمسين خطوة من ذلك الكشك ، كى يأخذ مارتنز معه بناء على طلبه ليخفيه حيث يختفي فى أقبية المجارى ..

ولم يكن عند لايم أى شك فى الموضوع ، إذ مبلغ علمه أن داورية من بوليس المجارى تتم جولتها نحو نصف الليل ، وأن الداورية التالية لا تبدأ إلا فى الساعة الثانية صباحا .

وهكذا عند منتصف الليل جلس مارتنز فى المقهى الصغير البارد إلى حد التجمد فى مواجهة الكشك ، وأخذ يقطع الوقت بشرب فنجان من القهوة وراء فنجان .

وكنت قد أقرضته مسدسا ، ووضعت رجالا بالقرب من الكشك بقدر الإمكان ، وتأهب بوليس المجارى كى يقوم عند ساعة الصفر بإقفال منازل المجارى وتفتيش الأقبية من أطراف المدينة المتفرقة إلى مراكز المجارى الرئيسية فى الوسط .

يبدو أن فكرتى الأساسية كانت تقوم على محاولة إلقاء القبض على لايم قبل أن يتمكن من النزول ثانية تحت الأرض ، فإن ذلك خليق أن يوفر علينا كثيرا من المتاعب ، وأن يوفر على مارتنز مجازفات كثيرة .

وبينما مارتنز جالس فى المقهى الصغير ثارت الرياح ولكن من غير أن يصحبها سقوط الجليد ، وكانت الأنفاس المثلوجة تهب من الدانوب ، وتكتسح الميدان الصغير فتجرف أمامها الجليد المتراكم كأنه أمواج مرغية مزبدة .

ولم تكن فى المقهى وسائل للتدفئة ، فجعل مارتنز يدفىء يديه على بخار فنجان القهوة ، وكان قد شرب عددا من تلك الفناجين لا يحصى .. وقد جلس معه فى المقهى أنفار متنكرون من رجالى . ولكنى كنت أغيرهم كل عشرين دقيقة على غير انتظام .

ومرت ساعة طويلة ، وتخلى مارتنز عن كل أمل فى النجاح ، كذلك ضعف أملى وأنا واقف فى الشارع الخلفى بجوار التليفون ، يحيط بى عدد

من قوة بوليس المجارى ، وهم على استعداد للهبوط متى اتضح أن ذلك ضروريا .

وكنا أحسن حالا من مارتنز ، لأننا نحظى بالتدفئة على الأقل من أحذيتنا الطويلة التى تصل إلى الفخذ ومعاطفنا الثقيلة ، وكان أحد الرجال بجوارى يحمل فوق صدره مصباحا كشافا فى ضعف حجم مصباح السيارة الكشاف ، وكان رجل آخر يحمل شمعدانا ، وأخيرا رن التليفون وكان المتحدث هو مارتنز .

ـ أكاد أموت من البرد ، والساعة بلغت الواحدة والربع ، فهل من المجدى حقا أن أستمر فى الانتظار .

ـ ما كان ينبغى لك أن تكلمنى بالتليفون ، استمر جالسا فى مواجهة الكشف بحيث يراك لأول وهلة .

ـ ها قد شربت سبعة فناجين من هذه القهوة المغشوشة . ومعدتى ترفض الآن تقبل المزيد منها .

ـ لم يعد من الممكن أن يتأخر الآن عن الحضور كثيرا ، لأنه لا يمكن أن يعرض نفسه للالتقاء بداورية الساعة الثانية ، حاول أن تصمد ربع ساعة آخر ، ولكن لا تقترب من التليفون ، هيا اذهب .

وسمعت فجأة صوت مارتنز يصيح :

ـ يا إلهى ! ها هو !

ثم انقطع الاتصال ، وهتفت بمساعدى :

ـ أعط الاشارة بحراسة جميع فوهات المجارى .

ثم أمرت قوة بوليس المجارى بالتأهب للنزول .



المعركــة

وهاكم ماحدث .

كان مارتنز منشغلا فى الحديث معى بداخل المقهى عندما دخلها هارى لايم .

ولا أدرى ماذا سمع لايم من الحديث ، بل لا أدرى إن كان سمع شيئا أو لم يسمع ، وإنما المهم أنه أبصر رجلا يدعى أن البوليس يبحث عنه ، وليس له أصدقاء فى فيينا ، يتحدث تليفونيا ، فكان هذا كافيا ليثير ارتيابه ، ولهذا قد غادر المقهى قبل أن يضع مارتنز السماعة .

وقد حدث ذلك فى اللحظات النادرة التى كان المقهى خاليا فيها من رجالى ، لأن احدهم كان قد خرج لتوه ، بينما الآخر كان على الطور يستعد للدخول ، فاحتك به لايم أثناء هروبه نحو الكشك .

وخرج مارتنز فى هذه اللحظة ، فلو أنه عندما أبصر رجلى خرج على الفور مستعينا به ، لكان من السهل إدراك الهارب ، بيد أن مارتنز تردد بضع ثوان ، كانت كافية كى يصل لايم إلى ما وراء الكشف وبعدها صاح مارتنز :

ـ إنه هو ! الحقوه !

إلا أن لايم كان قد نزل تحت الأرض .



ويا له من عالم غريب مجهول من معظم الناس ذلك العالم الذى يختفى

تحت اقدامنا ! فنحن فى الواقع نعيش فوق اقليم بأسره من الكهوف والاقبية والمواسير الضخمة والتيارات السريعة ذات الضغط الضخم ، حيث هناك مد وجزر يعلو ويهبط مثل مد البحر وجذره ، وهذا هو الملاذ الذى اختاره لايم لتدور فيه معركته الأخيرة .

والحقيقة أن المجمع الكبير فى مدينة المجارى عريض يبلغ عرضه نصف عرض نهر التاميز ويتدفق تياره تحت قبو ضخم وتمده جملة روافد بالماء ، وهناك مصاف كثيرة لتنقية ذلك الماء بحيث لا نجد رائحة كريهة شديدة إلا فى القنوات العليا ، أما هذا المجمع الكبير أو النهر الأساسى فالرائحة فيه ملطفة بمواد كيماوية ، وفى وسط الظلام الدامس يسمع باستمرار خرير الماء وهو يتدفق من المصافى قادما من القنوات العليا إلى ذلك الجمع الكبير .

ووصل مارتنز ورجال البوليس الى شاطىء المجمع الكبير بعد موجة المد العالى مباشرة ، وكان وصولهم بأن هبطوا أولا السلم الحديدى الحلزونى ثم اجتازوا دهليزا منخفضا جدا وجب عليهم فيه أن ينحنوا مثل رقم ٢ إلى أن عثروا على الدرجات الهابطة إلى الطابق السفلى فوجدوا الأمواج تتلاطم تحت اقدامهم .

وأجال أحد رجالى بطاريته الكهربائية على طول النهر ثم قال :

- لقد ذهب من هذا الطريق .

وأقام استنتاجه على أن تيار النهر كان يحمل قشور برتقال وعلب سجائر فارغة ونفايات أخرى ، لا يمكن أن تكون قد نفذت من المصافى ، فكأن لايم ترك هناك آثاره بوضوح تام مثلما يكون قد مشى فى الطين الندى .

وكان رجل يضىء البطارية بيده اليسرى ويشهر المسدس بيده اليمنى ، ثم قال لمارتنز :

- سر ورائى يا سيدى ، لأن المجرم قد يطلق الرصاص .

- ولماذا بحق الشيطان تسير أنت امامى فى هذه الحالة ؟

- لان هذه مهنتى يا سيدى .

ومشى الرجل يخوض الماء إلى ركبتيه ، وكذلك مارتنز وكان الشرطي يوجه نور بطاريته الكشافة إلى الأمام ونحو القاع ، كان يضيء بقايا الطعام المتخلفة ، ويتبع خط سيرها ، وقال لمارتنز وهو يتقدمه :

ـ مصيبة هذا المعتوه أنه لا أمل له فى الفرار ، فإن جميع المنافذ تحت حراسة شديدة ، ولدينا كردون من البوليس المسلح على طول المنطقة الروسية ، فليس أمام رجالنا إلا ان يقوموا بعملية المسح ابتداء من مداخل المجارى إلى الداخل من جميع القنوات الفرعية .

وأخرج بعدها من جيبه صفارة أرسل بها اشارة . وجاءه الرد بمثلها من جميع الاتجاهات . فقال :

ـ لقد نزلوا جميعا ، أعنى بوليس المجارى ، وهم يعرفون هذا المكان كما أعرف أنا طريق بيتى ، اه لو راتنى امى وانا فى هذه الحالة !

ورفع مصباحه مقدار دقيقة لينير مسافة أبعد .. وعندئذ دوى الرصاص ، وطار المصباح من يده وسقط فى المجرى . فصرخ الشرطى يسب ويلعن :

ـ هل جرحت ؟

ـ خدشت يدى ، وهذا كل ما هناك خدشا لن يبقى له أثر بعد ثمانية أيام ، خذ يا سيدى من فضلك هذا المصباح الآخر إلى أن أربط يدى بالمنديل ، ولكن لا تشعل المصباح من فضلك ، لأن المجرم كامن لنا فى أحد الأروقة الجانبية .



ظل صدى الرصاص فى الأقبية المغلقة يتردد طويلا ، ولما سكن ، سمعت إشارة من الجهة الأمامية بالصفارة ، أجاب عليها الشرطى المصاب لمارتنز ، فقال له مارتنز :

ـ من الغريب حقا أنى لا أعرف حتى اسمك .

ـ إن إسمى بيتز يا سيدى .

وضحك ضحكة مغتصبة صادرة عن حلقه فى الظلام واستطرد قائلا :

ـ انى لست هنا فى مكانى الطبيعى ، إن مركز عملى السابق فى الوطن هو قرب حانة حدوة الحصان .

ـ اعرفها .

ـ وهل تعرف ايضا حانة الدوق كرافتن ؟

ـ اعرفها .

ـ هذا هو محل وقوفى وأنا فى الخدمة فى لندن .

ـ دعنى الآن أسير أمامك .

ـ كيف هذا ؟

ـ إنى لا أعتقد انه سيطلق على الرصاص ولانه يجب على أن اتحدث إليه بما عندى .

ـ إن الأوامر التى عندى أن أحافظ عليك يا سيدى ، فألزم الحذر من فضلك .

ـ لاتخف .

وتسلل مارتنز إلى جوار بيتز ثم سبقه ببضع سنتيمترات ، وعندئذ صاح ينادى هارى ، وإذا بالأصداء تتردد مرارا .

ـ هارى . هارى . هارى .

وكأنها سلسلة من الصفير فى الظلام ، ومرة أخرى مارتنز يصيح :

ـ هارى ! أخرج فهذا كله لا فائدة منه .

وإذا بصوت قريب منهما بصورة خارقة يجيبهما بحيث التصق بالحائط من الدهشة والخوف :

ـ أهذا أنت يا صديقى القديم ؟ ماذا تريد منى أن أصنع بالضبط يارولو ؟

ـ أريدك أن تخرج من مكمنك وترفع يديك فوق رأسك علامة على التسليم .

- ولكن ليس عندى مصباح يا صديقى ولا استطيع ان ارى شيئا .

فقال بيتز لمارتنز :

- إحذر يا سيدى .

- التصق بالحائط يابيتز ، فإنه لا يمكن ان يطلق على النار . ثم صاح بصوت مسموع جدا :

- يا هارى ، إنى سأشعل مصباحى ، فكن امينا واكشف عن مكمنك ، فإنك لن تستطيع الفرار .

وأشعل مارتنز مصباحه ، وعلى بعد عشرين خطوة من هناك ، عند التقاء حدود النور والماء ظهر هارى للعيان .

- ارفع يديك يا هارى .

وأطلق هارى النار وهو يرفع يده فأصابت الرصاصة الحائط على بعد سنتيمترات قليلة من راس مارتنز ، وأطلق بيتز صرخة .

وفى هذه اللحظة عينها ، على بعد خمسين مترا من هناك أضىء مصباح كشاف فأنار القناة بطولها ، وانصبت الأشعة على هارى ومارتنز وعينى بيتز الثابتتين وهو غارق فى نفايات المجارى إلى خصره ، واستقرت علبة سجائر فارغة تحت ابطه وهو جامد فى مكانه ، فإن مجموعة رجالى كانت قد وصلت إلى مسرح الحوادث .

وانحنى مارتنز مذهولا مضطربا فوق جثة بيتز ، أما هارى لايم فكان منتصبا فى منتصف الطريق بين مارتنز وبيننا ، فلم نستطع أن نطلق النار عليه خوفا من إصابة مارتنز ، وكان النور الكشاف يبهر عينى لايم .

وتقدمنا ببطء ، وقد شهرنا مسدساتنا نترقب فرصة لإطلاق النار ، وكان لايم يتلفت هنا وهناك كأنه أرنب انصبت عليه كشافات سيارة ، ثم إذا به فجأة يغوص وسط الماء العميق فى القناة ، ولما سلطنا عليه الضوء كان تحت السطح ، وجرفه التيار السريع ، حتى اجتاز موضع جثة بيتز وخرج من دائرة النور إلى الظلام .

ترى ما الذى يدفع رجلا لم يعد لديه أمل فى النجاة ان يتعلق ببضع دقائق من الحياة ؟ وهل هذا ثمرة غريزة طيبة أم غريزة سيئة ؟ أنا لا أدرى !

وكان مارتنز قد خرج من مركز الضوء الكشاف وعيناه تحدقان فى ماء القناة السريع ، وقد شهر الآن مسدسه وصار هو الوحيد بيننا الذى يستطيع أن يطلق النار من غير خطر .

وخيل إلى إنى لمحت حركة فصحت به :

ـ هناك ، هناك ، اضرب !

فرفع يده وأطلق النار على الفور من غير تفكير ، وطاشت الطلقة ، ودوى بين الأقبية صياح ألم فيه مزيج من التأنيب والرجاء .

ثم توقفت بالقرب من جثة بيتز فوجدته ميتا .

ولما رفعت عينى كان مارتنز قد اختفى فى ظلام الأقبية ، فناديته ، ولكن اسمه تلاشى فى الأصداء المترددة وصت هدير الماء .

وروى لى مارتنز فيما بعد :

ـ لقد صعدت ضد التيار لأعثر على هارى ، بيد أنى اضطررت أن أتركه يفلت منى فى الظلام لأنى لم أجسر أن أرفع مصباحى خوفا من أن يغريه ذلك بإطلاق النار ، وأظن أن رصاصتى أصابته عند مدخل قناة فرعية ، ولهذا أعتقد أنه صعد فى القناة الفرعية إلى أن وصل إلى السلم الحديدى ، لقد كان باب الكشك فوق رأسه بثلاثين قدما ، ولكنه لم يجد فى نفسه القوة على الصعود ، وحتى لو صعد سيجد الجنود فى انتظاره فى الخارج ، ولاشك فى أنه كان يعرف ذلك كله ، إلا أن من طبيعة الانسان حين يقترب منه الموت أن ينشد النور ، أما الحيوان فيتوارى فى الظلام ، إن الانسان يريد أن يموت فى بيته ، وليست الظلمات هى الوسط الطبيعى لنا ، فبدأ يزحف فوق درجات السلم ، إلا أن الألم أقعده عن الاستمرار فى الصعود .

وتوقف مارتنز برهة ثم استطرد يقول لى :

ـ ولست أدرى إلى الآن لماذا شرع عندئذ يطلق من شفتيه ذلك اللحن القصير السخيف الذى كنت من الغفلة فيما مضى بحيث ظننته مؤلفه ؟ هل كان يحاول بذلك أن يسترعى الانتباه ؟ هل كان يريد أن يجتذب إليه صديقا ، حتى ولو كان الصديق الذى أوقع به فى هذا الكمين ؟ أم تراه كان لا يدرى وهو فى حالة الاحتضار ماهو فاعل ؟ مهما يكن من شىء ، فقد سمعته يصفر ، فعدت إلى شاطىء النهر متحسسا طريقى فى الظلام ، وعثرت على الممر الذى قبع فيه ، فناديته ، وعندئذ توقف الصفير فوق راسى مباشرة ، فوضعت يدى على سور السلم الحديدى وصعدت ، وكنت لم أزل خائفا أن يطلق النار ، وفوق الدرجة الثالثة عثرت قدمى بيده ، فأضأت مصباحى ، وإذا به بغير سلاح ، ولاشك فى انه أسقط المسدس حين أصابته رصاصتى ، وظننت لحظة أنه مات ، ثم سمعته يئن ، فناديته ، فماذا تظنه تحول نحوى ليقول لى :

ـ وصيته الأخيرة ؟

ـ كلا ، بل قال يالك من أبله ! وهذا كل ما قاله ، ولست أدرى ماذا كان يعنى ، وربما كان يعنى أننى رفضت الثلاثين ألف جنيه سنويا التى عرضها على ، ثم أخذ بعد ذلك يتوجع ، فلم أتحمل الموقف وأجهزت عليه برصاصة .

ـ سننسى هذا حتى لا يأخذ القانون بخناقك يا مارتنز .

ـ أما أنا فلن أنساه !



وفى ذلك المساء بدأت العاصفة تهب ساخنة شيئا ما ، ثم أخذت الثلوج فى جميع انحاء فيينا تذوب ، فلم تعد هناك حاجة إلى آلات كهربائية لحفر القبور ، وأصبحت عمليات الدفن أقل عناء ..

وحينما حل موعد الجنازة الثانية لهارى لايم ، كان الجو قد أصبح حارا كأيام الربيع ، وكنت مسرورا أن أراه أخيرا يسكن التراب ، بيد أن هذا كلفنا حياة رجلين .

وبالقرب من الحفرة كانت المجموعة قد نقصت عن المرة الأولى ، لم

يكن هناك كورتز ، ولا كولر ، لم يكن هناك سوى الفتاة أنا شميت ، ورولو مارتنز ، وأنا ، ولم يكن أحد منا يذرف دمعة .

ولما انتهى كل شىء ابتعدت الفتاة من غير أن تقول لنا كلمة واحدة ، وسارت فى الممر الطويل المظلل بالأشجار وسط الثلج الذائب متجهة إلى المدخل العمومى ، وموقف الترام وقلت لمارتنز :

ـ عندى سيارة ، فهل تحب أن أوصلك ؟

ـ كلا سأركب الترام .

ـ لقد كسبت الرهان يا مارتنز ضدى ، وكنت سأمضى فى المسألة بغباء وبلاهة .

ـ لم أكسب ، بل خسرت !

ورأيته يسير وراء الفتاة بخطوة واسعة ، فلما أدركتها استأنفا طريقهما جنبا إلى جنب ، ولا أظن أنه وجه إليهما الخطاب طول الطريق ، فقد كان يجهل تماما كيف يستعمل الأسلحة النارية ولا يعرف شيئا فى الأمور النفسية ، وكل ما يصلح له هو كتابة روايات عن رعاة البقر .

أما كرابن فلا أدرى عنه شيئا ، سوى أنه لم يزل فى خلاف محتدم مع إدارة العلاقات الثقافية حول نفقات إقامة دكستر ، وتطالبه الإدارة بأن يدفع تلك النفقات لأنه كان من البلاهة بحيث خلط بين أديب مثقف وجاهل لايعرف شيئا عن الثقافة والأدب .

وهكذا انتهت قصة الرجل الثالث الذى دفن مرتين !

رقم الايداع : ٣٤٢٨ / ١٩٩١
I . S . B . N
977 — 07 — 0070 — 3



جراهام جرين

○ ولد فى مدينة بركها مستيدا بإنجلترا فى ٢ اكتوبر ١٩٠٤ .

○ بدت ميوله الادبية تظهر وهو طالب ، ثم عمل فى مكتب الخدمات الخارجية التابع للاستخبارات البريطانية .

○ نشر روايته الاولى "العميل السرى" عام ١٩٣٩ .

○ نشر ٢٥ رواية من اهمها "عميلنا فى هافانا" ، "القوة والمجد" ، "وزارة الخوف" "والرجل العاشر" ، واغلبها مترجم الى اللغة العربية .

○ يقول عنه النقاد انه يرتبك امام اعماله فى اللحظات الحاسمة ويعيش حيرته ، وهو لم يعرف ابدا كيف يحسم امره بين الشر والخير .

○ نشرت له روايات الهلال خمس روايات منها "نهاية غرام" ، "الرجل الثالث" ١٩٥٧ ، "جريمة على الشاطىء" ١٩٥٨ ، "المندوب السرى" ١٩٥٩ ، "قضية ضائعة" ١٩٧٨ .

هــذه  الــروايــة

هذه واحدة من اهم الروايات التى كتبها الروائى الانجليزى الراحل جراهام جرين ، والتى استفاد فيها من تجربته كعميل سرى ، خدم فى وكالة الاستخبارات البريطانية سنوات طويلة ، كما استفاد فيها من رحلاته المتعددة الى اقطاب الارض .

تدور احداث الرواية فى اجواء غامضة ، حول كاتب يذهب بعد الحرب الى مدينة فيينا من اجل اكتشاف سر زميله الذى مات فى ظروف غامضة اثناء الحرب .

وتجىء اهمية هذه الرواية ان جرين يرى أن بعض الدول كالافراد ، ظاهرهم ثقافة وباطنهم ذمة ملتوية وضمير ميت . فمدينة فيينا تعانى وسكانها من ذلك الاحتلال المتضاعف الذى تمثله قوى اربع دول ، وكيف تنشا ويلات الحرب ، وينفتح الباب لجرائم الاتجار فى كل شىء حتى فى حياة الاطفال وادميتهم .

هذه الرواية المنشورة عام ١٩٤٨ مالبثت أن تحولت الى فيلم سينمائى شهير قام ببطولته اورسون ويلز وجوزيف كوتن ، واخرجه كارول ريد ، ويعتبر الآن احد ابرز الاعمال الكلاسيكية فى النوع البوليسى .

الرجل الثالث :

وردة تقدمها الهلال فوق قبر جراهام جرين .. وايضا باقة ادبية متميزة تتجدد كلما عاود المرء قراءتها .